جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الصورة البيانية في شعر الإمام

(على – رضي الله عنه - والإمام الشافعي – رحمه الله -)

(دراسة مقارنة)

الدكتور

البدري فؤاد عبد الغني عبدالرازق

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بجرجا
والأستاذ المساعد بجامعة سلمان بن عبدالعزيز
بالمملكة العربية السعودية

العدد التاسع عشر
للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م
الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م

الترقيم الدولي : ISSN 2356 ■ 9050

تم دعم هذا المشروع بواسطة عمادة البحث العلمى بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز من خلال المقترح البحثى رقم
٢٠١٤/٠٢/١٧٧٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وكفى ، وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى .

وبعد

فإن الشعر كان ومازال وسيظل مفخرة من مفاخر العرب ؛ لأنه طريق إلى فهم كتاب الله – سبحانه وتعالى–، والكشف عن أسراره ولطائفه.

من أجل هذا اختارت الدراسة نموذجًا تميز بالبلاغة وشهد له القاصي والداني بالفصاحة ، وتراثه شعرًا ونثرًا يشهد بذلك وهو الإمام علي – ﷺ وأرضاه –، كما اختارت نموذجًا آخر لإمام ورع تقي حكيم من الخلف الصالح؛ لتعقد مقارنة بينهما في الصورة البيانية ، لا لغرض تفضيل أحدهما على الآخر؛ فمن المعلوم سلفًا فضل الإمام علي – ﷺ – في الفصاحة والبيان، ولكن هدف الموازنة تقرير سريان الذوق البياني والحكمة من السلف إلى الخلف، وانتقال السليقة اللغوية من جيل إلى جيل متى توافرت الهمم على ذلك واعتنى الناس بها فيما هنالك .

كما أن الإمام على – كرم الله وجهه– رابع الخلفاء الراشدين المهديين ، والإمام الشافعي صاحب المذهب الفقهي الثالث عند أهل السنة والجماعة ، وقد اشتهرا بذلك عبر ربوع الأمة وأجيالها مما جعل البعض يعتقد أن كلا منهما عالم من علماء الدين والفقه فحسب ، ويغفل كثير من الناس عن إنتاجهما الشعري ، وما تميزا به من صور بلاغية رائعة ، مما جعلني أقوم بهذه الدراسة ؛ لأسلط الضوء على جانب الشاعرية عندهما من خلال الصورة البيانية ، وما كان يتمتع به كل منهما من رقة وإحساس ، يعكس لنا طبيعتهما الشخصية.

فجاء هذا البحث تحت عنوان " الصورة البيانية في شعر الإمام (علي – ﷺ- والإمام الشافعي – رحمه الله –) (دراسة مقارنة) " .

وعلى الرغم من أهمية الموضوع، وما يعالجه من قضايا مهمة تخص الإمامين ، إلا أنني لم أقف – فيما أعلم – في مكتبة الدراسات البلاغية بصفة خاصة، والعربية بصفة عامة على دراسة علمية محُكمّة أو غير محُكمّة، تتناول الموازنة بين الصورة البيانية في شعرهما .

ومن ثم عقدت العزم على العمل في هذه الدراسة التي تبرز براعة الإمامين في الملاحظة والتصوير والرصد الدقيق لأبكار المعاني وأفرادها.

كما تسعى الموازنة إلى بيان خصائص الصورة في جيل السلف خلال دراستها في شعر الإمام علي – ﷺ – وخصائصها في جيل خلفهم من أهل العلم والورع خلال دراستها في شعر الإمام الشافعي ، ومدى الاختلاف أو الاتفاق بينهما في الآليات والجماليات والأغراض .

كما يسعى البحث في مجمله إلى الكشف عن عبقرية الإيجاز في دقائق الصورة وما احتوت عليه من حكم بالغة يحتاجها شباب الأمة اليوم، فتتحقق الفائدة من وجهين:

الأول : تربية الملكة والذوق البياني الذي يحيي جانبًا مواتًا من اللغة في نفوس الشباب الذي استهوى بعض اللغات الأخرى ، فاستهان بلغته ولم يدرك روعتها وفضلها على غيرها .

الوجه الاخر : نشر حكمة الإمامين والتي اشتهرا بها وشملت كثيرًا من الجوانب الخلقية والنفسية التي يحتاجها التربويون والمعلمون والدعاة في معالجة مشاكل النشأ.

أهداف الدراسة :

أولا : إلقاء الضوء على الصور البيانية الرائعة ، التي ساهمت كثيرا في تصوير الواقع الذي عاشه الإمامان.

ثانيا : الموازنة بين الصور البيانية في شعرهما من حيث آليات الصورة وجمالياتها ومن حيث الكثرة أو القلة ، ومدى توظيف كل منهما لهذه الصور .

ثالثا: إثبات موهبتهما الشعرية ، التي سخرها كل منهما في خدمة الدين ، والحث على الأخلاف الفاضلة التي دعا إليها ديننا الحنيف .

رابعا : التأكيد على أن أكثر الصور البيانية عندهما كانت منتزعة من واقعهما الاجتماعي ، مما كان له دور كبير في تأثيرها في المتلقي .

خامسا : تهدف الدراسة من خلال الصورة البيانية إلى معرفة ما بداخل كل منهما ، والحكم عليه من خلال الربط بين أجزاء الصورة البيانية.

أما عن منهجي في هذه الدراسة فاعتمدت منهج التحليل البلاغي الذي يتتبع دقائق التصوير ويحلل أجزاء الصورة ويصل إلى عمقها ليكشف ما لها وما عليها ، كما اعتمدت المنهج الموازن الذي يبرز خصائص الصورة عند الإمامين ، وما يمتاز به كل منهما ، ثم أسير كالتالي:

أولا:اعتمدت الدراسة على ديوان الإمام علي –ﷺ –ت/د/ محمد عبدالمنعم خفاجي– دار ابن زيدون – مكتبة الكليات الأزهرية – من دون ، وديوان الإمام الشافعي – رحمه الله–اعتنى به / عبد الرحمن المصطاوي – دار المعرفة – بيروت– لبنان–الطبعة الثالثة – ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

ثانيا: أقرأ شعرهما قراءة متأنية، تتسم بالدقة والتروي والتمعن.

ثالثا :استخراج الأبيات الشعرية التي حملت صورا بيانية ظاهرة .

رابعا: أصنف الأبيات الشعرية على حسب سياقها.

خامسا :في بداية كل سياق ، تذكر الدراسة نبذة قصيرة عنه.

سادسا: أحلل الصورة البيانية في كل بيت تحليلا كاملا ، دون الفصل بين أجزائها ؛ لأنه سيؤدي إلى التكرار ، فضلا عن ذهاب بلاغتها .

سابعا: في نهاية كل سياق ، أقوم بالموازنة بين المقطوعتين، من حيث ما تميزت به كل مقطوعة عن الأخرى، وما اعتمدت عليه من صور بيانية ساهمت في أداء الغرض على أكمل وجه.

ثامنا: وضحت في الهامش بعض الألفاظ الغامضة في الأبيات .

تاسعا: ضبط الآيات القرآنية والأبيات الشعرية بالشكل من باب إتمام الفائدة .

وقد جاءت الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث ، وخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع:

فأما المقدمة: فبينت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياري له.

وأما التمهيد: فجاء على شقين:

الشق الأول: نبذة عن الإمامين.

الشق الثاني: الصورة البيانية عند علماء البلاغة.

المبحث الأول: الصورة البيانية في سياق الصمود في مواجهة الأحداث ، والرضا بالقضاء.

المبحث الثاني: الصورة البيانية في سياق الحث على طلب العلم.

المبحث الثالث: الصورة البيانية في سياق مخاطبة السفيه.

المبحث الرابع : الصورة البيانية في سياق الزهد في الدنيا.

المبحث الخامس : الصورة البيانية في سياق حقيقة المال .

المبحث السادس : خصائص الصورة البيانية عند الإمامين.

وأما الخاتمة: ففيها أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

التمهيد

الشق الأول: نبذة عن الإمامين

أولا: الإمام علي بن أبي طالب - ﷺ -:

نسبه وميلاده :

هو الإمام أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله – ﷺ – وصهره وأبو السبطين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، وأول من أسلم من الصبيان ، علم من أعلام الدين ومن أبرز المجاهدين والشجعان وقدوة للزاهدين، ومن أشهر الخطباء والمفوهين، والعلماء العاملين، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وُلد قبل البعثة بعشر سنين، وتربى في حجر النبي محمد – ﷺ – وفي بيته، وكان يلقب حيدرة وقيل: إن أمه هي التي سمته حيدرة([1]).

وصفه:

---

[1] – ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب – لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري – جـ٢٠– ص ٣– ت/ مفيد قميحة وجماعة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان– الطبعة الأولى– ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م .– و الطبقات الكبرى – لمحمد بن سعد البصري الزهري – جـ٣– ص ٢٦– ت/ إحسان عباس– دار صادر بيروت– وتاريخ دمشق – لابن عساكر– جـ٤٢– ص ٢٣– دار الفكر – بيروت– لبنان– الطبعة الأولى – ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م– والتفسير والمفسرون– د/محمد حسين الذهبي – جـ١– ٨٢. وتاريخ دمشق – لابن عساكر– جـ٤٢– ص ٢٣– دار الفكر – بيروت– لبنان– الطبعة الأولى – ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.

كان علي – ﷺ- عريض اللحية ، وقد أخذت ما بين منكبيه، أصلع على رأسه زغيبات. أخبرنا الفضل بن دكين قال: أخبرنا يونس بن أبي إسحاق عن أبيه أبي إسحاق قال: رأيت عليا فقال لي أبي قم يا عمرو فانظر إلى أمير المؤمنين، فقمت إليه فلم أره يخضب لحيته، ضخم اللحية.وكان – ﷺ – أبيض الرأس واللحية.

وعن أبي إسحاق قال: رأيت عليا أصلع أبيض اللحية (٢).

لباسه:

عن خالد بن أمية قال: رأيت عليا- ﷺ- وقد لحق إزاره بركبتيه، وعن عبد الله بن أبي الهذيل قال: رأيت عليا عليه قميص رازيّ ، إذا مدّ كمه بلغ الظفر فإذا أرخاه بلغ نصف ساعده. وكان يلبس إزارًا مرفوعًا،فلما سئل عن ذلك ، قال: يُخشّعُ القلب ويقتدي به المؤمن.

وكان يتعصّب بعصابة سوداء، ويلبس عمامة سوداء، وقبله حبيبنا محمد – عليه الصلاة والسلام – لبس يوم فتح مكة عمامة سوداء أرخى عذبتها بين كتفيه الشريفين.

وكان سيدنا علي –ﷺ – يتختم في يساره، وكان نقش خاتمه "محمد رسول الله" ونقش على خاتمه أيضًا: "لله الملك"(٣).

كراماته:

---

٢ – ينظر: الطبقات الكبرى – لمحمد بن سعد البصري الزهري – جـ٣- ص٢٦- ت/ إحسان عباس- دار صادر بيروت- وتاريخ دمشق – لابن عساكر- جـ٤٢- ص ٢٣- دار الفكر – بيروت- لبنان- الطبعة الأولى – ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م .

٣ – ينظر: الطبقات الكبرى –جـ٣- ص ٢٦.

عن الأصبغ قال: أتينا مع عليّ – ﷺ – فمررنا على قبر الحسين، فقال علي: ههنا مناخ ركائبهم ، وههنا موضع رحالهم، وههنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمد.

وعن علي بن زاذان أن عليا حدّث حديثا فكذبه رجل، فقال علي: أدعو عليك إن كنتُ صادقًا، قال: نعم، فدعا عليه فلم ينصرف حتى ذهب بصره.

وعن أبي ذر – ﷺ – قال: بعثني رسول الله– ﷺ – أدعو عليا، فأتيت بيته فناديته فلم يجبني فعدت فأخبرت رسول الله : فقال لي: عد إليه ادعه. قال: فعدت أناديه فسمعت صوت رحى تطحن، فشارفت فإذا الرحى تطحن وليس معها أحد، فناديته فخرج إلي منشرحًا، فقلت له إنّ رسول الله يدعوك. فجاء ثم لم أزل أنظر إلى رسول الله – ﷺ– وينظر إليّ. ثم قال: يا أبا ذر ما شأنك، فقلت: يا رسول الله عجيب من العجب رأيت رحى تطحن في بيت عليّ، وليس معها أحد يرحى.

ومرة عرض لعلي رجلان في الخصومة فجلس في أصل جدار، فقال رجل: يا أمير المؤمنين الجُدُر تقع، فقال علي: امض كفى بالله حارسًا. فقضى بين الرجلين وقام فسقط الجدار(٤).

علمه:

كان – ﷺ – بحراً فى العلم، وكان قوى الحُجَّة، سليم الاستنباط، أُوتِىَ الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، وكان ذا عقل قضائى ناضج، وبصيرة نافذة إلى بواطن الأُمور، وكثيرا ما كان يرجع إليه الصحابة فى فهم ما خفى واستجلاء ما أشكل، وقد ولاه رسول الله – ﷺ – قضاء اليمن، ودعا له بقوله: "اللّهم ثبِّت لسانه واهد قلبه"، فكان مُوفَّقا ومُسدَّدا، فيصلاً فى المعضلات، حتى ضُرِب به المثل فقيل: "قضية ولا أبا حسن لها"، ولا عجب، فقد تربى فى بيت النبوة، وتغذَّى بلبان معارفها، وعَمَّته مشكاة أنوارها. روى علقمة عن ابن

---

٤ – ينظر: تاريخ دمشق– جـ٤٢– ص ٢٣.

مسعود قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علىّ بن أبى طالب. وقيل لعطاء: أكان فى أصحاب محمد أعلم من علىّ؟ قال: لا، والله لا أعلمه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "إذا ثبت لنا الشئ عن علىّ لم نعدل عنه إلى غيره.
والذى يرجع إلى أقضية علىّ – ﷺ – وخطبه ووصاياه، يرى أنه قد وُهِبَ عقلاً ناضجًا، وبصيرة نافذة، وحظًا وافرًا من العلم وقوة البيان(٥).

مكانته من التفسير:

جمع علىّ – ﷺ– إلى مهارته فى القضاء والفتوى، علمه بكتاب الله – سبحانه وتعالى–، وفهمه لأسراره وخفى معانيه، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد رُوِى عن ابن عباس أنه قال "ما أخذت من تفسير القرآن فعن علىّ بن أبى طالب".

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن علىّ – ﷺ – أنه قال:"واللهِ ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيم نزلت، وأين نزلت ؟، وإن ربى وهبَ لى قلباً عقولاً، ولسانًا سئولاً.
وعن أبى الطفيل قال: "شهدتُ عليًا يخطب وهو يقول: سلونى، فوالله لا تسألونى عن شئ إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله، فواللهِ ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل، أم فى جبل"(٦).

شجاعته:

شهد– ﷺ – الغزوات مع رسول الله – ﷺ– فكان له فيها شأن عظيم، وأظهر شجاعة عجيبة، وأعطاه الرسول– ﷺ– اللواء في مواطن كثيرة ، فلما غزا رسول الله– ﷺ– غزوة بدر الأولى، أعطاه لواءه الأبيض، وفي غزوة بدر

---

٥ – ينظر: التفسير والمفسرون – جـ١– ص ٨٢.
٦ – ينظر: التفسير والمفسرون– جـ١– ٨٣.

الكبرى كان أمام رسول الله رآيتان سوداوان إحداهما مع علي يقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار، وأمره رسول الله أن يبارز في هذه الغزوة الوليد بن عتبة فبارزه عليّ وقتله.

وفي غزوة أحد قتل سيدنا علي- ﷺ - ثلاثة من أصحاب الألوية ورؤسًا كبيرة عرفت بعدائها للإسلام ، وكان وقتها في عنفوان شبابه ممتلئا قوة ونشاطا.

وفي غزوة الخندق لما أقحم بعض المشركين خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم ومنهم عمرو بن عبد ود وكان من أقوياء العرب المشهورين وكان وقتئذ كبير السن، فلما وقف هو وخيله قال له سيدنا علي: أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. فقال: فإني أدعوك إلى النزال قال: ولم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك. قال علي: ولكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره ، ثم أقبل على عليّ فتنازلا وتجادلا ، فقتله عليّ - ﷺ-، وخرجت خيله منهزمة وهذه شجاعة نادرة من أبي الحسن.

وفي غزوة خيبر معروف عند أهل السير قتله لمرحب وهو زعيم حربي من زعماء اليهود ضربه سيدنا علي على هامته حتى عضّ السيف منها بأضراسه، وسمع أهل المعسكر ضربته، ثم لما وقع الترس من سيدنا عليّ أخذ بابا عند الحصن فتترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، وكان ذاك الباب يحتاج لثمانية رجال أشداء حتى يقلبوه ليس لحمله كما ذكر ذلك أبو رافع مولى رسول الله.

وفي غزوة حنين كان - ﷺ- ثابتا مع من ثبت من المسلمين مع رسول الله-ﷺ - كما ثبت في أحد وغيرها، وكلما راجعنا السّير والغزوات وجدنا اسم

الإمام عليّ – ﷺ– مشرقا مضيئا ، قضى عمره مجاهدا مدافعا عن دين الله يفتح الحصون المستعصية ويهدم الأصنام إعلاءً لكلمة الله – سبحانه وتعالى –([٧]).

وفاته:

توفى – رحمه الله – فى رمضان سنة أربعين من الهجرة، مقتولاً بيد عبدالرحمن بن ملجم الخارجى، وعمره ثلاث وستون سنة، وقيل غير ذلك([٨]).

ثانيا : الإمام الشافعي – رحمه الله -:

نسبه وميلاده :

هُوَ الإِمَام أَبُوعبدالله مُحَمَّد بن إِدْرِيس، بن الْعَبَّاس، بن شَافِع، بن السَّائِب، بن عبيد، بن عبد يزِيد، بن هَاشم، بن عبد الْمطلب، بن منَاف، بن قصى، الْقرشِي المطلبي الشَّافِعِي الْحِجَازِي الْمَكِّيّ ، ابْن عَم رَسُول الله – ﷺ – يلتقى مَعَه فى عبد منَاف. ولد بغزة سنة ١٥٠ وَقيل بعسقلان، وهما من الأَرْض المقدسة، ثمَّ حمل إِلَى مَكَّة وَهُوَ ابْن سنتَيْن([٩]).

نشأته :

نشأ الشافعي في أسرة فقيرة، ومات أبوه وهو صغير فانتقلت به أمه إلى مكة ؛ لتحافظ على شرف نسبه.

حفظ الشافعي القرآن الكريم وهو صغير، وأخذ يحفظ الأحاديث النبوية ويكتبها، ورحل إلى البادية وعاشر قبيلة «هذيل» عشر سنين ليأخذ عنها قواعد اللغة العربية وكلماتها، فحفظ الشافعي أشعار هذيل وأخبارها، وكانت هذيل من

---

[٧] – ينظر: الطبقات الكبرى – جـ٣– ٢٦.

[٨] – ينظر: التفسير والمفسرون – جـ١– ٨٣.

[٩] – ينظر: تهذيب الأسماء واللغات – للنووي – جـ١– ص ٦٤– ت/ مصطفى عبد القادر عطا– ومعجم المؤلفين – جـ٩– ص ٣٢– وأحكام القرآن للشافعي – للبيهقي – جـ١– ص ٥– كتب هوامشه/ عبدالغني عبد الخالق– قدم له / محمد زاهد الكوثري– مكتبة الخانجي – القاهرة– الطبعة الثانية – ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م.

القبائل العربية الفصيحة. تعلم الشافعي الرمي إلى جوار العلم، حتى إنه كان يرمي عشرة سهام فلا يخطئ في سهم منها وقال في ذلك: «كانت همتي في شيئين: الرمي والعلم، فصرت في الرمي بحيث أصيب من عشرة عشرة» وسكت، فقال له بعض من سمعه أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي(١٠).

طلبه للعلم ورحلاته :

فلما أخذ الشافعي – رحمه الله – في الفقه وحصل منه على مسلم بن خالد الزنجي وغيره من أئمة مكة ما حصل ، رحل إلى المدينة قاصدا الأخذ عن أبي عبد الله مالك بن أنس – ﷺ –، ورحلته مشهورة فيها مصنف معروف مسموع ، وأكرمه مالك رحمه الله وعامله لنسبه وعلمه وفهمه وعقله وأدبه بما هو اللائق بهما ، وقرأ الموطأ على مالك حفظا فأعجبته قراءته ، فكان مالك يستزيده من القراءة لإعجابه من قراءته، ولازم مالكا فقال له اتق الله فإنه سيكون لك شأن ، وفي رواية أنه قال له : إن الله – تعالى– قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية ، وكان للشافعي حين أتى مالكا ثلاث عشرة سنة ، ثم ولي باليمن واشتهر من حسن سيرته وحمله الناس على السنة والطرائق الجميلة أشياء كثيرة معروفة ، ثم رحل إلى العراق وجد في الاشتغال بالعلم ، وناظر محمد بن الحسن وغيره ونشر علم الحديث ، وأقام مذهب أهله ونصر السنة وشاع ذكره وفضله وتزايد تزايدا ملأ البقاع ، وطلب منه عبد الرحمن بن مهدي إمام أهل الحديث في عصره أن يصنف كتابا في أصول الفقه(١١) .

ذهابه إلى مصر:

---

١٠ – ينظر:تهذيب الأسماء واللغات – جـ١– ص ٦٤. وأحكام القرآن للشافعي – جـ١– ص ٦.

١١ – ينظر: تهذيب الأسماء واللغات – جـ١– ص ٦٧– ورحلة العلماء في طلب العلم – تأليف أبي أنس ماجد إسلام البنكاني– جـ١– ص ١٢٦.

خرج الشافعى، رحمه الله، إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة. وقال أبو عبد الله حرملة بن يحيى: قدم الشافعى مصر سنة تسع وتسعين ومائة. وقال الربيع: سنة مائتين، ولعله قدم فى آخر سنة تسع جمعًا بين الروايتين، وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره فى البلدان، وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر النواحى والأقطار للتفقه عليه والرواية عنه، وسماع كتبه منه، وأخذها عنه، وساد أهل مصر وغيرهم، وابتكر كتبًا لم يسبق إليها، منها أصول الفقه، وكتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب قتال أهل البغى، وغيرها([١٢]).

مؤلفاته:

للشافعى مؤلفات كَثِيرَة مِنْهَا: «الْأُم طبع فى سَبْعَة أَجزَاء كَبِيرَة» ، و«جامعى الْمُزنِيّ» الْكَبِير وَالصَّغِير. و «مختصريه» و «مُخْتَصر الرّبيع» و«مُخْتَصر البويطى» وَكتاب «حَرْمَلَة» وَكتاب «الْحجَّة» وَهُوَ الْقَدِيم. و «الرسَالَة الجديدة والقديمة» و «الأمالى» و «الْإِمْلَاء» وَغير ذَلِك مِمَّا هُوَ مَعْرُوف([١٣]).

وفاته:

توفّي الشافعي وقت صلاة العشاء ليلة الجمعة بعد أن صلى المغرب، ودفن بعد العصر يوم الجمعة ٣٠ رجب سنة ٢٠٤ هـ، وقبره في مصر([١٤]).

---

[١٢] – ينظر: تهذيب الأسماء – جـ١– ص ٦٦.
[١٣] – ينظر: أحكام القرآن للشافعي – جـ١– ٧.
[١٤] – ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – جـ١٣– ص ٣١٢.

الشق الثاني
نبذة عن الصورة البيانية عند علماء البلاغة

تعريف الصـــورة

غني عن البيان أن الصورة البيانية لها تعريفات متعددة([١٥]) ، ولعل أقرب تعريف لها هو : إنها إعادة تشكيل الواقع ونقله بطريقة إبداعيـــة يســـهم فيهـــا الخيال، بحيث لا يُنقل الواقع أو يُنسخ ، واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظـــواهر والجمع بين العناصر المتضادة أو المتباعدة في وحدة ([١٦]).

ولعل هذا التعريف هو ما عبر عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني من قبل ، بقوله :" وهكذا إذا استقريت التشبيهات ، وجدت التباعد بين الشيئين كلمـــا كـــان أشدَّ ، كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، ....وذلك أن موضع الاستحسان ....أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ([١٧])".

والصورة البيانية التي أتناولها في هذه الدراسة ، أقصد بها تلك الأوجـــه البلاغية المعروفة : من تشبيه ومجاز وكناية ، والتي ستكون محل الموازنة .

ويمكننا أن نعرج على هذه الأوجه في عجالة ، فنقول :

---

[١٥] – ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنـــة وتطبيقـــا – ص ١٨– والتعبير البياني – د/ شفيع السيد – ص ١٣٩– دار الفكر العربـــي – الطبعـــة الثانية – ١٩٨٢م – والصورة بين القدماء والمعاصرين – د/ عبد الحليم محمـــد شادي – ص ٢٣، ٢٤– ط السعادة – الطبعة الأولى – ١٤١١هـــ – ١٩٩١م – والصورة الفنية في المثل القرآني – د/ محمد حسين على الصـــغير– ص ٢٥– منشورات وزارة الثقافة والإعلام– الجمهورية العراقية – دار الرشيد – ١٩٨١م.

[١٦] – ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي – د/ جابر عصفور – ص ٣٧٣– – دار التنوير للطباعة والنشر– بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٨٣م .

[١٧] – أسرار البلاغة – للإمام عبد القاهر الجرجـــاني – ص ١٣٠ – ت/ محمـــود محمد شاكر– مطبعة المدني– الطبعة الأولى – ١٤١٢هـــ–١٩٩١م.

البيان لغة : الظهور والوضوح ، تقول : بان الشي ، يبينُ : إذا ظهر واتَّضحَ، والبيان ما بَيُنَ به الشيء من الدلالة وغيرها ، والبيان : الإفصاح ، وفلان أبينٌ من فلان : أي أفصح منه وأوضح كلاما ، ورجل بَيِّنٌ فصيح ([١٨]).

والبيان في الاصطلاح : " هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ([١٩])". وهناك تعريفات متعددة له ([٢٠]).

والتشبيه لغة : التمثيل ُ ، يقالَ: هذا شبهُ هذا ومثيلُه([٢١]).

التشبيه اصطلاحا : الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى ([٢٢]) .

المجاز لغة : التجاوز والتعدّي([٢٣]) .وتقول : جزت الطريق جوازا ومجازا وجوازا ... والمجاز المصدر والموضع ([٢٤]).

المجاز اصطلاحا : الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له ، في اصطلاح به التخاطب ، على وجه يصح ، مع قرينة عدم إرادته([٢٥]). وله تعريفات أخرى([٢٦]).

---

[١٨] – ينظر: لسان العرب – لابن منظور – مادة " بين ".

[١٩] – الإيضاح – للخطيب القزويني – ص ٢٣١– ت/ محمد عبد المنعم خفاجي – مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤٢٦هـ–٢٠٠٦م –

[٢٠] – ينظر: البيان والتبين – للجاحظ – ص ٧٦– ت/ عبد السلام هارون – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة – ٢٠٠٣م – ودلائل الإعجاز – للإمام عبد القاهر – ص ٤٣– ومفتاح العلوم – للسكاكي – ٣٢٩– ط دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الأولى– ١٩٨٧م .

[٢١] – ينظر: لسان العرب – مادة " مثل ".

[٢٢] – الإيضاح – للخطيب القزويني – ص ٢٣٣.

[٢٣] – ينظر: لسان العرب – لابن منظور – مادة " جوز ".

[٢٤] – العين – للخليل بن أحمد – جـ٢– ص ١٣٢– ت/ مهدي المخزومي – وإبراهيم السامرائي – بغداد – ١٩٨٦م .

[٢٥] – الإيضاح – للخطيب – ص ٢٨٩.

[٢٦] – ينظر: أسرار البلاغة – للإمام عبد القاهر – ص ٣٦٥– ت/ محمد رشيد رضا – بيروت– ١٩٨٨م – والخصائص لابن جني – جـ٢– ٤٤٩– دار

أقسام المجاز:

١- مجاز مرسل ، وهو :ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه ، كاليد إذا استعملت في النعمة([٢٧]). وله علاقات كثيرة([٢٨]).

٢- مجاز بالاستعارة ، وهو : ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له([٢٩]). والاستعارة لها أقسام متعددة ([٣٠]).

الكناية لغة : ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره ([٣١]).

الكناية اصطلاحا : أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومىء به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد يريدون طويل القامة، وكثير رماد القدر يعنون كثير القرى. وفي المرأة: نؤوم الضحى والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها. فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر، من شأنه أن يردفه في الوجود([٣٢]).

الكتب العربية- ١٣٤٣ه- ومفتاح العلوم – للسكاكي – ص ١٨٩- ت/ نعيم زرزور – بيروت- ١٩٧٨م – والمثل السائر – لابن الأثير – جـ١- ص ٥٨- القاهرة – ١٩٣٩م .

[٢٧] – الإيضاح – ص ٢٩٢.

[٢٨] – ينظر: الإيضاح – ص ٢٩٤-٢٩٨ .

[٢٩] – الإيضاح – ص ٣٠١.

[٣٠] – ينظر: الإيضاح – من ص ٣١١- إلى ص ٣٢٧-

[٣١] – ينظر: لسان العرب – مادة " كنى ".

[٣٢] – دلائل الإعجاز – للإمام عبد القاهر الجرجاني – ص ٦٦- مطبعة المدني بالقاهرة- الطبعة الثالثة – ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م – وينظر: الإيضاح – ص٣٤٥- ونقد الشعر – لقدامة بن جعفر- ص ١٥٦- ت/ كامل مصطفى- مكتبة الخانجي- القاهرة – الطبعة الثالثة – من دون –

أقسام الكناية:

تنقسم الكناية باعتبار المكنى عنه إلى ثلاثة أقسام :

١- **أن يكون المكنى عنه صفة .**

٢- **أن يكون المكنى عنه موصوفا .**

٣- **أن يكون المكنى عنه نسبة ([٣٣]).**

[٣٣] – ينظر: الإيضاح – ص ٣٤٦- ٣٥٢- وبغية الإيضاح – لعبد المتعال الصعيدي – ص ٣٧٠- مكتبة الآداب – الطبعة السابعة عشر- ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م –

المبحث الأول

الصورة البيانية في سياق الصمود في مواجهة الأحداث ، والرضا بالقضاء :

غني عن البيان :أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، يتجرع فيها المؤمن كؤوسا كثيرة من الابتلاء الذي لو نزل بالجبال لنال منها ، ولكن المؤمن يقابله بكل صمود وصبر ؛ لأنه يعلم جيدا قول ربه الكريم :(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ[٣٤])، ويستبشر دائما بحديث نبيه العظيم (عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا لهُ [٣٥].

وها هما الإمامان (علي – ﷺ – والشافعي – رحمه الله)، يشدان من عضد كل مؤمن ؛ ليواجه أحداث الزمان بكل عزيمة وقوة ، فيقول الإمام علي – كرم الله وجهه – :

هي[٣٦] حالان شدة ورخاءُ ∴ وسجالان نعمة وبلاءُ

الفتى الحاذق الأديب إذا ما ∴ و خَانَهُ الدَّهْرُ لَمْ يَخُنْهُ عَزَاْءُ

إن ألمت ملمة بي فإني ∴ في الملمات صخرة صماءُ

عَالِمٌ بِالبَلاَءِ عِلْما بأن لَيْسَ ∴ يَدُومُ نَّعِيمٌ أو رخاءُ[٣٧]

---

[٣٤] – الآيات ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧ من سورة البقرة .

[٣٥] – رواه مسلم في الزهد – باب المؤمن أمره كله خير – برقم ٢٩٩٩– والدرامي في الرقاق – باب المؤمن يؤجر في كل شيء – برقم ٢٧٧٧.

[٣٦] – الضمير هنا يعود إلى الدنيا .

[٣٧] – ديوان الإمام علي – ﷺ– ص ٢٦– ت/ د/ محمد عبدالمنعم خفاجي– دار ابن زيدون– مكتبة الكليات الأزهرية– من دون.

وفي السياق نفسه يطالعنا الإمام الشافعي – رحمه الله – بقوله:

دَعِ الأَيَّـــامَ تَفْعَـــلُ مَـــا تَشَـــاءُ ∴ وَطِـــبْ نَفْسَـــاً إِذَا حَكَـــمَ القَضَـــاءُ
وَلاَ تَجْـــزَعْ لِحَادِثَـــةِ اللَّيَـــالِي ∴ فَمَـــا لِحَـــوادِثِ الـــدُّنْيَا بَقَـــاءُ
وَكُـــنْ رجُـــلاً عَلَـــى الأَهْـــوَالِ جَلْـــداً ∴ وَشِـــيمَتُكَ السَّـــمَاحَةُ وَالوَفَـــاءُ(٣٨)
وَإِنْ كَثُـــرَتْ عُيُوبُـــكَ فِـــي البَرَايَـــا ∴ وَسَـــرَّكَ أَنْ يَكُـــونَ لَهَـــا غِطَـــاءُ
تســـتر بالســـخاء فكُـــلُّ عَيْـــبٍ ∴ يغطيـــه كمـــا قيـــل السَّـــخَاءُ
وَلاَ حُـــزْنٌ يَـــدُومُ وَلاَ سُـــرُورٌ ∴ وَلاَ بُـــؤْسٌ عَلَيْـــكَ وَلاَ رَخَـــاءُ(٣٩)
وَلاَ تُـــرِ لِلأَعَـــادِي قَـــطُّ ذُلاًّ ∴ فَـــإِنَّ شَـــمَاتَةَ الأَعْـــدَا بَـــلاَّءُ
وَلاَ تَـــرْجُ السَّـــمَاحَةَ مِـــنْ بَخِيـــلٍ ∴ فَمَـــا فِـــي النَّـــارِ لِلظَّمْـــآنِ مَـــاءُ
وَرِزْقُـــكَ لَـــيْسَ يُنْقِصُـــهُ التَّـــأَنِّي ∴ وَلَـــيْسَ يَزِيـــدُ فِـــي الـــرِّزْقِ العَنَـــاءُ
إِذَا مَـــا كُنْـــتَ ذَا قَلْـــبٍ قَنُـــوعٍ ∴ فَأَنْـــتَ وَمَالِـــكُ الـــدُّنْيَا سَـــوَاءُ
وَمَـــنْ نَزَلَـــتْ بِسَـــاحَتِهِ المَنَايَـــا ∴ فَـــلاَ أَرْضٌ تَقِيـــهِ وَلاَ سَـــمَاءُ
وَأَرْضُ اللَّـــهِ وَاسِـــعَةٌ وَلَكِـــنْ ∴ إِذَا نَـــزَلَ القَضَـــا ضَـــاقَ الفَضَـــاءُ(٤٠)
دَعِ الأَيَّـــامَ تَغْـــدُرُ كُـــلَّ حِـــيْنٍ ∴ وَلاَ يُغْنِـــي عَـــنِ المَـــوْتِ الـــدَّوَاءُ(٤١)

(٤٢) فالإمام علي – كرم الله وجهه- في مقطوعته الأولى ، يبين لنا أن الدنيا لا تسير على وتيرة واحدة ، فيوم لنا ويوم علينا ، ولكن الفتى الحاذق منا ،

---

٣٨ – الأهوال : جمع هول : المصيبة – الجلد : الصبور .
٣٩ – البؤس : الفقر .
٤٠ – القضا : اسم مقصور من " القضاء ".
٤١ – ديوان الإمام الشافعي – ص ١٧، ١٨– اعتنى به / عبدالرحمن المصطاوي – دار المعرفة – بيروت– الطبعة الثالثة – ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م .
٤٢ – في المبحث الأول والثاني فقط ، استعرضت الصور البيانية أولا ، ووضعتها مجملة بين يدي القارئ ؛ لكثرتها ، ثم قمت بالموازنة .

إذا ما خانه الدهر يظفر بالرخاء ، وفي قوله :" إذا ما خَانَهُ الدَّهْرُ"، استعارة مكنية ، حيث شبه الدهر بإنسان خائن ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي الخيانة .

وفي قوله: " لَمْ يَخُنْهُ عَزَاْءُ "، استعارة مكنية أخرى ، حيث شبه العزاء بإنسان يلتف حول من تصيبه المصيبة ، ويخفف عنه آلامها ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الفعل المنفي " لَمْ يَخُنْهُ "، على سبيل الاستعارة المكنية .

ويواصل الإمام علي صموده في مواجهة الأحداث ، ويقول :

إن ألمت ملمة بي فإني ∴ في الملمات صخرة صماءُ(٤٣)

وهذه صورة تشبيهية رائعة ، حيث يشبه نفسه في تحمل الأحداث والملمات بالصخرة الصماء ، ووجه الشبه :الصمود والتحمل وعدم التأثر في كل.

ويؤكد الإمام هذا المعنى في صورة كنائية ، فيقول :

عَالِمٌ بالبَلاَءِ عِلْما بأن لَيْسَ ∴ يَدُومُ نَّعِيمٌ أو رخاءُ

فقوله : " لَيْسَ يَدُومُ نَّعِيمٌ أو رخاءُ "، كناية عن تقلب الدنيا وعدم استمرارها على حال واحدة .

وفي المسلك نفسه وفي الطريق ذاته يدعونا الإمام الشافعي إلى الرضا بقضاء الله– سبحانه وتعالى–، وعدم الجزع والفزع ؛ لأن ذلك لا يجدي من الأمر شيئا ، فيقول:

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَل مَا تَشَاءُ ∴ وَطِبْ نَفْساً إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ

في البيت صورة استعارية ، حيث شبه الأيام بإنسان يفعل ما يريد ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الفعل والقضاء ، على سبيل الاستعارة المكنية .

---

٤٣ – الملمة : حادثات الزمان ومصائبه .

وفي الشطر الثاني من البيت استعارة أخرى ، حيث شبه القضاء بالسلطان الذي يحكم بين الناس ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الحكم ، على سبيل الاستعارة المكنية.

ثم يواصل الإمام الشافعي أبياته ، ويقول:

وَكُنْ رجُلاً عَلَى الأَهْوَالِ جَلْداً ∴ وَشِيمَتُكَ السَّمَاحَةُ وَالوَفَاءُ

فقوله :" وَكُنْ رجُلاً عَلَى الأَهْوَالِ جَلْداً "، كناية عن التحلي بالصبر، مهما بلغت قوة الأحداث.

وبعد ذلك يقول:

وَإِنْ كَثُرَتْ عُيُوبُكَ فِي البَرَايَا ∴ وَسَرَّكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءُ

فهذا البيت يحمل – بين طياته– صورة استعارية رائعة ، حيث شبه العيوب بشيء حسي ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الغطاء على سبيل الاستعارة المكنية.

وهذه الصورة الاستعارية تصور لنا بوضوح أن الإنسان عندما يكون سخيا مع الناس ، فسوف ينال منزلة كبيرة منهم ،تكون بمثابة الستر والغطاء لعيوبه.

وعضد هذه الصورة الاستعارية ، بصورة أخرى في البيت التالي ، فقال:

تستر بالسخاء فكُلُّ عَيْبٍ ∴ يغطيه كما قيل السَّخَاءُ

حيث شبه السخاء بالثياب التي تستر عورة الإنسان وتغطيها، وحذف المشبه به وهو الثياب ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغطاء على سبيل الاستعارة المكنية.

وقد تكون الاستعارة تصريحية في الفعل " يغطي "، حيث استعار الغطاء للستر ، واشتق من الغطاء الفعل " يغطي "، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ويمكن أن يكون البيت كله كناية عن الكرم ، وسر جمالها الإتيان بالمعنى مصحوبا بالدليل ، بالإضافة إلى ما فيها من إيجاد وتجسيم .

ويواصل الشافعي صموده في مواجهة الأحداث ، ويهمس في أذن كل مستمع ويحذره أن يظهر لعدوه ضعفا وذلة ؛ لأنه سيؤدي ذلك إلى فرح عدوه وشماتته به ، فيقول:

وَلاَ تُرِ لِلأَعَادِي قَطُّ ذُلاً ∴ فَإِنَّ شَمَاتَةَ الأَعْدَا بَلاَءُ

حيث شبه شماتة الأعداء بالبلاء ، ووجه الشبه :الحزن والتأثر في كل ، أو المصائب التي تلم بالإنسان في كل .

وقوله :" وَلاَ تُرِ لِلأَعادِي قَطُّ ذُلاً "، كناية عن الصمود والإباء .

ويتبع هذا التشبيه ، بتشبيه آخر غاية في الروعة والجمال ، فيقول:

وَلاَ تَرْجُ السَّمَاحَةَ مِنْ بَخِيلٍ ∴ فَمَا فِي النَّارِ لِلظَّمْآنِ مَاءُ

فهذه صورة تشبيهية ضمنية ، حيث شبه الذي يرجو السماحة من بخيل بالظمآن الذي يطلب الماء من النار ، ووجه الشبه : عدم الجدوى والانتفاع في كل ، أو طلب المستحيل أو المستبعد في كل.

ثم أتى بصورة تشبيهية أخرى في قوله :

إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ ∴ فَأَنْتَ وَمَالِكُ الدُّنْيَا سَوَاءُ

حيث شبه صاحب القلب القنوع بمن يملك الدنيا بأسرها ، ووجه الشبه : الاستواء في كل والرضا بما لديه من نعماء أنعم الله بها عليه، أو نيل المراد في كل .

وقوله: إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ ،صورة مركبة من الكناية (التي تدل على رضا الإنسان بالقليل)، والاستعارة المكنية في قوله :" قلب قنوع "، حيث شبه القلب بالإنسان القانع الراضي بما قسم الله له ، وحذف المشبه به وهو

الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " قنوع "، على سبيل الاستعارة المكنية .

ثم يبين لنا الإمام الشافعي بأنه لا شيء ينفع من قدر الله ، فيقول:

وَمَنْ نَزَلتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا ∴ فَلاَ أَرْضٌ تَقِيهِ وَلاَ سَمَاءُ

فقوله : وَمَنْ نَزَلتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا "، استعارة مكنية ، حيث شبه المنايا بعدو نزل بساحة قوم ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو النزول . وهذه الصورة الاستعارية تصور لنا بوضوح إحاطة أسباب المنايا بالإنسان، بالإضافة إلى ما فيها من تشخيص ، وهذا يدل على شدة المصائب.

وقوله في الشطر الثاني من البيت: " فَلاَ أَرْضٌ تَقِيهِ وَلاَ سَمَاءُ "، كناية عن عدم منفعة الأسباب عند نزول الموت .

ويتابع الإمام الشافعي حديثه عن القضاء ، فيقول:

وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَلكِنْ ∴ إِذَا نَزَلَ القَضَا ضَاقَ الفَضَاءُ

فقوله في الشطر الثاني :" إِذَا نَزَلَ القَضَا ضَاقَ الفَضَاءُ"، كناية عن عدم منفعة الأسباب عند نزول القضاء، وهذه الكناية تعضد وتساند الكناية السابقة.

وفي قوله:" إِذَا نَزَلَ القَضَا "، مجاز مرسل ، علاقته المسببية ، حيث عبر بالمسبب وهو القضاء ، وأراد السبب وهو نزول أمر الله – سبحانه وتعالى – .

ويختم الإمام الشافعي مقطوعته الشعرية بصورة استعارية ، فيقول:

دَعِ الأَيَّامَ تَغْدُرُ كُلَّ حِيْنٍ ∴ وَلاَ يُغْنِي عَنِ المَوْتِ الدَّوَاء

حيث شبه الأيام بإنسان يغدر بالناس ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الغدر على سبيل الاستعارة المكنية.

وهذه الصورة الاستعارية توحي بأن سنة الأيام ودندنها الغدر بالإنسان ، فإذا أعطته شيئا ، أخذت منه أشياء .

ويمكن أن تكون الاستعارة تصريحية ، إذا أجريناها في الفعل " تغـدر" ، حيث استعار الغدر للمصائب التي يقع فيها الإنسان ، واشتق من الغـدر الفعـل " يغدر " ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

كما أن قوله :" وَلاَ يُغْنِي عَنِ المَوْتِ الدَّوَاء " كناية عن أن الموت سيف مسلط على رقاب العباد ، لا ينفع معه دواء.

الموازنة بين الصور البيانية عند الإمامين من خلال السياق:

أولا: من خلال ما سبق عرضه وتحليله ، يتبين لنا أن الإمامين (عليا- ﷺ-، والشافعي – رحمه الله-)، كلاهما وظَّفَ الصورة البيانية توظيفًا رائعًا ، لخدمـة سياق الصمود في مواجهة الأحداث والرضا بالقضاء ، مما كان له أكبر الأثر في إقناع المتلقي .

ثانيا: يلاحظ من خلال السياق أن الصورة البيانيـة عنـد الإمـامين صـبغت بالصبغة الإيمانية المفعمة بالرضا واليقين بقضاء الله، ولذلك جاءت معبرة تعبيرًا صادقًا عن أحاسيسهم ومشاعرهم الصادقة، ولِمَ لا ؟! والأول منهما صحابي جليل، وابن عم رسول الله – ﷺ- ، ورابع الخلفاء الراشدين المهديين، وتربى في بيـت النبوة ، وشرب من كأسها، وأكل من طعامها، ولبس مـن ثيابهـا، ونشـأ فـي أحضانها.

والثاني منهما صاحب مذهب فقه معروف ومتميز، له أنصـاره وأتباعـه الكثر ، ورزق بذاكرة قوية تساعده على حفظ الأحكام الشرعية ، وكـان صـاحب فهم ثاقب لآيات ربه الكريم ، كل ذلك كان له أثر كبير في صبغتهما الدينية التـي انعكست على شعرهما.

وإذا أردنا أن ندلل على ما قلناه ، فلننظر إلى الصورة التشبيهية التـي وردت في قول الإمام علي – كرم الله وجهه -:

إن ألمـت ملمـة بـي فـإني ∴ في الملمـات صـخرة صـماءُ

ولنتأمل كيف شبه الإمام علي صموده في مواجهة الأحداث بالصخرة الصماء ، التي لا تحركها الرياح ولا تنال منها الأحداث ، وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على صبغة دينية قوية وإيمان – تتزلزل الجبال – ولا يتزلزل .

وإذا أردنا أن نأخذ شاهدا – والشواهد كثيرة –عند الإمام الشافعي ، فلنتأمل قوله :

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ ∴ وَطِبْ نَفْسَاً إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ

حيث أورد صورتين استعاريتين في البيت ، الثانية منهما تتمثل في قوله :" وَطِبْ نَفْسَاً إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ"، حيث شبه القضاء بالسلطان الذي يحكم بين الناس، ولكنه يدعونا من خلال صبغته الدينية العالية إلى الرضا والسعادة بقضاء الله – سبحانه وتعالى – ، وعدم الجزع والفزع؛ لأن ذلك لا يجدي من الأمر شيئا.

ثالثا: الإمام علي – ﷺ– في مقطوعته الشعرية التي تكونت من أربعة أبيات، استخدم الصورة البيانية أربع مرات ، المرة الأولى في الاستعارة التي وردت في قوله :" اذا ما خَانَهُ الدَّهْرُ "، حيث شبه الدهر بالإنسان الذي يخون، والمرة الثانية في الاستعارة التي وردت في قوله :" لم يخنه عزاء " ، حيث شبه العزاء بإنسان ، وآثر الإمام علي – ﷺ – التصوير الاستعاري على الحقيقة ؛ لأن التصوير الاستعاري له تأثير مباشر على القلوب ، بالإضافة إلى التشخيص الذي يمثله.

المرة الثالثة في الصورة التشبيهية الرائعة ، التي وردت في قوله:

إن ألمت ملمة بي فإني ∴ في الملمات صخرة صماءُ

وأول ما يسترعي الانتباه في هذه الصورة التشبيهية ، هو حذف الوجه والأداة ، الذي جسد علاقة التقارب الشديد بين الطرفين ، رغم الاختلاف البارز بين المشبه وهو "الإمام علي"، الذي ينتمي إلى عالم الإنسان ، وبين المشبه به،

وهو " الصخرة " ، التي تنتمي إلى عالم الجمادات ، ولكن على صعيد سياق الصمود في مواجهة الأحداث ، يجتمع طرفا التشبيه معا كأنهما في كيان واحد . كما أن حذف الوجه والأداة في الصورة ، يقصد الإمام من ورائهما غرضا بلاغيا رائعا ، وهو ترك العنان للمتلقي لإعمال فكره وتنشيط عقله في استنباط وجه الشبه الذي يجمع بين الإمام وتلك الصخرة الصماء ، وهذا أسلوب من الأساليب البلاغية المستحسنة عند كثير من العلماء.

وثاني ما يسترعي الانتباه في هذه الصورة ، هو الجمع بين طرفين متباعدين في الجنس، وهذا ما أشاد به بعض البلاغيين المحدثين ، عندما وقف على مثل هذه التشبيهات ، وقال معلقا : " إن مثل هذه التشبيهات من النوع الغريب المعجب([٤٤])".

وثالث ما يسترعي الانتباه في هذه الصورة ، وهو اختيار الإمام علي- ﷺ – لصورة المشبه به "الصخرة الصماء"، فلقد اختيرت بعناية فائقة وقدرة رائعة، ووفق فيها توفيقا كبيرا؛ لأسباب كثيرة :

منها :أن الصخرة الصماء صورة بصرية من الصور التي يراها الداني والقاصي ، وهي مستوحاة من البيئة التي يعيش فيها الإمام علي، مما كان له أكبر الأثر في نفوس المتلقين وتأثرهم بهذه الصورة التشبيهية ، ووضع أيديهم على الغرض الذي يهدف إليه الإمام علي من وراء الصورة التشبيهية ، وهو الصمود والعزيمة والقوة في مواجهة الأحداث ؛ لأنهم يشاهدون هذه الصخرة أمام أعينهم لا تحركها الرياح مهما بلغت قوتها .

ومنها: أن الإمام علي اختار الصخرة المقيدة بقوله :" الصماء " ولم يختر صخرة مجوفة ، فهذا القيد الذي أورده في صورة المشبه به كان له دلالة واضحة

---

[٤٤] – التصوير البياني – للأستاذ الدكتور / محمد محمد أبو موسى – ص ١٠٥- مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الثانية –.

في وجه الشبه ، لأن الصخرة المجوفة لا تثبت في مهب الرياح ، وتقلب أحوال الطبيعة ، بخلاف الصخرة الصماء التي ليس بها تجويف ، وكل ذلك ينعكس تلقائيا على صورة المشبه .

أضف إلى ذلك أن تقييد الصخرة بالصماء يزيد من قوة صموده وتحمله وعدم تأثره بالأحداث ، وبذلك يتبين لنا أن القيد أضفى على المعنى قوة واضحة. ومنها : تنكير لفظ " صخرة " ، الذي يفهم منه العظم ، والقوة ، والمتانة ، والعلو ...وعضده وقواه بتنكير الصفة " صماء ".

ورابع ما يسترعي الانتباه في الصورة ، القيد الذي أورده الإمام علي – ﷺ – في صورة المشبه ، وهو الجار والمجرور في قوله :" في الملمات "، وكأن الإمام يؤكد في نفسه رقة القلب ، ولين المشاعر ، ورهافة الحس ، لأنه أراد أن يقول : إني في الملمات فقط كالصخرة الصماء ، ولكن ليس هذا طبع أصيل فيَّ ، لأن هذا يتنافى مع طبيعته الدينية الرقيقة ، ومشاعره الفياضة ، وعواطفه الجياشة التي تتأثر بالأحداث التي تدور حوله، كل ذلك أومئ إليه من خلال القيد.

وخامس ما يسترعي الانتباه في هذه الصورة التشبيهية ، هو الالتفات الجميل الذي اشتملت عليه الصورة ، فسياق المقطوعة الشعرية هو أن الإمام علي – ﷺ – كان يتحدث بضمير الغائب ،فلنتأمل قوله :

والفتى الحاذق الأديب إذا ما ∴ خَانَهُ الدَّهْرُ لَمْ يَخُنْهُ عَزَاْءُ

ولكنه عندما صاغ الصورة التشبيهية عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم ،فقال :

إن ألمت ملمة بي فإني ∴ في الملمات صخرة صماءُ

وتلك لمسة بلاغية رائعة من الإمام علي ، وكأنه يريد أن يكون أول ما يطبق الكلام الذي يأمر به الناس من مواجهة الأحداث بكل صمود وعزيمة وقوة ؛ لأنه

يعلم يقينا الجزاء الذي ينال هؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون ، وما أكثرهم في زماننا ، وهذا هو الداء الخطير الذي أصيبت به الدعوة الإسلامية ، مما كان له أكبر الأثر في عدم تأثير الدعاة في الناس ، حتى أصبحت أعمدة المنابر تهتز من تحت أقدامهم ، والناس لا يتحرك لهم ساكن ، وإذا سألناهم عن السبب ، قالوا : نريد دعوةً بالأفعال قبل اللسان ، فيا ليت شعري هل ينتبه الدعاة لهذا الداء الخطير ، ويجدوا له دواءً ؟ .

المرة الرابعة في الصورة الكنائية التي وردت في قوله:"لَيْسَ يَدُومُ نَّعِيمُ أو رخاء" ، فهذه كناية عن تقلب الدنيا وعدم استمرارها على حال واحدة ، لأن ذلك يتنافى مع المنهج الإلهي .

وقد آثر الإمام علي – ﷺ – الكناية هنا عن التصريح ، لأن الكناية أبلغ من التصريح في وصول المراد ،

ولعل السبب في إيثاره الأسلوب الكنائي – أيضا –؛ أن هذا الأسلوب من الأساليب البلاغية التي ترد في كلام الناس كثيرا ، فضلا لما يحمله هذا الأسلوب من قصد المعنيين : الأصلي ، والمعنى المكنى عنه ، وهذا بخلاف المجاز الذي لا يجوز فيه المعنى الأصلي .

أضف إلى ذلك أن سياق الصمود في مواجهة الأحداث يخاطب به جميع الناس ، العامة والخاصة ، مما كان يتطلب من الإمام علي أن يؤثر الأسلوب الكنائي؛ لأنه بعيد عن الخفاء والتورية التي يشتمل عليها المجاز ، الذي لا يفهمه إلا الخاصة من الناس ، لما فيه من إعمال للفكر، وتدبر لاستخدام الألفاظ.

رابعا: الإمام الشافعي في مقطوعته الشعرية التي تكونت من ثلاثة عشر بيتا، والتي تحدث فيها عن الصمود في مواجهة الأحداث ، استخدم جميع عناصر الصورة البيانية ، من تشبيه واستعارة ومجاز مرسل وكناية ، والتي تآزرت

وتعاضدت جميعها لخدمة السياق ، وأدت الدور المنوط بها على أكمل وجه ، والتي خلت من بعضها مقطوعة الإمام علي لعدم حاجة المعنى إليها .

خامسا :استخدم الإمام الشافعي الصورة التشبيهية في هذا السياق ثلاث مرات، المرة الأولى في صورة تشبيهية مفردة ، تتمثل في قوله :

وَلاَ تُـــرِ لِلأَعَـــادِي قَـــطُّ ذُلاً ∴ فَـــإِنَّ شَـــمَاتَةَ الأَعْـــدَا بَـــلاءُ

وهذه الصورة التشبيهية بما لها من دلالة تصور لنا بوضوح مدى شماتة الأعداء بالإنسان ، ولذلك فالإمام الشافعي يطلب من كل إنسان – من خلال هذه الصورة– ألا ينكسر أمام أعدائه، ولا يظهر لهم ضعفا ولا ذلة في يوم من الأيام، حتى لا يشمت فيه أعداؤه ، وما أدراك ما شماتة الأعداء ؟ تلك الشماتة التي شبهها الشافعي بالبلاء الذي يصيب الإنسان .

والمرة الثانية التي استخدم فيها الإمام الشافعي الصورة التشبيهية المفردة ، هي قوله :

إِذَا مَـــا كُنْـــتَ ذَا قَلْـــبٍ قَنُـــوعٍ ∴ فَأَنْـــتَ وَمَالِـــكُ الـــدُّنْيَا سَـــوَاءُ

تلك الصورة التشبيهية الرائعة التي صورت صاحب القلب القنوع ، الذي يرضى بما قسمه الله – سبحانه وتعالى – له ، في صورة من يملك الدنيا من مشرقها إلى مغربها.

وأكد الإمام هذا المعنى من خلال صياغته التعبيرية الدقيقة للصورة التشبيهية ، تأمل معي قوله: "سَواءُ " ، أي : إذا رزقت نعمة القناعة – التي فقدها كثير من الناس ، وأصبحوا يلهثون وراء جمع الأموال، كما يلهث العطشان بحثا عن الماء –، فأنت تستوي مع مالك الدنيا بحذافيرها .

وأنا استدرك علي الإمام الشافعي، وأقول: إن صاحب القلب القنوع ، يزيد على مالك الدنيا بأسرها .يزيد عنه راحة البال ، يزيد عنه عدم الهم المترتب من

جمع الأموال ، يزيد عنه حفاظه على طاعة ربه ؛ لأن الأموال سبب رئيس في انشغال المرء عن طاعة ربه ، يزيد عنه قِصر حسابه يوم القيامة مع ربه ، يزيد عنه .....إلا إذا كان الإمام الشافعي يقصد من قوله :" سواء "، أن الذي يملك الدنيا ليس له من ماله إلا الاحتياجات الأساسية فقط ، من مأكل ، وملبس ، ومشرب ، ومسكن ، وفي هذه الحالة يستوي معه صاحب القلب القنوع.

ويمكن القول بأن صاحب المال يزيد على صاحب القلب القنوع ، إذا طبق العنصر الثالث من حديث رسول الله – ﷺ – الذي يقول فيه ":: عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ قَالَ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي قَالَ وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ؟([٤٥]).

ومن بلاغة هذه الصورة التشبيهية ، الإيجاز الذي اشتملت عليه ، كيف عبرت عن كل هذه المعاني في أسلوب لا يتجاوز سطرا واحدا ؟

ويلاحظ من خلال تلك الصورتين التشبيهتين ، أن الإمام الشافعي يميل إلى استخدام الصورة التشبيهية المفردة ، البعيدة عن التركيب والتمثيل ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى طبيعية السياق الذي يتحدث عنه الإمام ، فسياق الصمود في مواجهة الأحداث ، تلك الأحداث التي تنال من الجميع ولا يفلت منها أحد ؛ لأنها تصيب القريب والبعيد ، والعامة والخاصة من الناس ، والغني والفقير ، والمتعلم والجاهل ، كل ذلك كان يتطلب من الإمام الشافعي أن يأتي بصور تشبيهية مفردة بسيطة ، بعيدة عن التركيب والتمثيل ، تلك التشبيهات التي تحتاج إلى قدر معين من التأمل والتدبر ، الذي لا يتوفر لجميع طبقات الناس ، من أجل ذلك لجأ الإمام الشافعي إلى التشبيهات المفردة ؛ لقربها من الفهم ، وسهولتها في المعرفة .

---

[٤٥] – أورده مسلم في كتاب الزهد والرقائق – برقم ٤٨٣– وأخرجه النسائي والترمذي والحاكم ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

ومما يلفت النظر – أيضا – في تلك الصورتين التشبيهتين ، أنهما جاءتا في سياق التشبيه البليغ الذي حذف منه الوجه والأداة ، ولم يبق فيهما إلا الطرفان ، وهذا النوع من التشبيه أشاد به كثير من علماء البلاغة ؛ لأنه يترك العنان للقارئ في استنباط وجه الشبه ؛ ولأنه يساعد على إعمال فكر القارئ ، وتنشيط عقله ، حتى إذا حصل على وجه الشبه ، وجد لذة كبيرة في نفسه ؛ لأن الشيء الذي ينال بعد تعب ومجهود ، يقع من النفس موقعا حسنا ، لعل هذا ما يقصده الإمام الشافعي من حذف وجه الشبه والأداة .

وقد اتفق الشافعي مع الإمام علي – ﷺ – في هذا المسلك ، حيث جاءت صورته التشبيهية – كما ذكرنا آنفا- محذوفة الوجه والأداة .

المرة الثالثة التي استخدم فيها الإمام الشافعي الصورة التشبيهية ، كانت في قوله :

وَلاَ تَرْجُ السَّمَاحَةَ مِنْ بَخِيلٍ ∴ فَمَا فِي النَّارِ لِلظَّمْآنِ مَاءُ

إلا أنه في هذه الصورة سلك مسلكا آخر ، وهو مسلك التشبيه الضمني الرائع، الذي يستند على إعمال الفكر وتنشيط العقل ، ويحتاج إلى قدر معين من الفكر والتدبر ، ولذلك نجد شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني ، يصفه بقوله :"كالجوهر في الصدف لا يبرز ذلك إلا بعد أن نشقه عنه ، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه([٤٦])".

فهذا التشبيه الذي أورده الإمام الشافعي يحتاج – كما بين الشيخ – إلى إعمال فكر ؛ للكشف عن جوهره ، والوصول إلى درره المكنونة في أعماق البحار ، والتي لا يصل إليها إلا سابح ماهر.

---

[٤٦] – أسرار البلاغة – ص ١١٩– دار المعرفة – بيروت– ١٩٧٨م.

وأحسب أن الإمام الشافعي وفق في هذا التشبيه الضمني توفيقا كبيـــرا ؛ لأسباب كثيرة :

١- من حيث مناسبته للبخيل ؛ لأن البخيل يحتاج إلى معاملة خاصة ، ربما لا تتوفر لجميع الناس.

٢- أنك لا تستطيع أن تتعرف على البخيـــل – حتـــى وإن صـــاحبته ســـنين طويلة- إلا من خلال المعاملة ، فهو لا يتكشف لك بسهولة ، وتلك هـــي الحـــال المناسبة للتشبيه الضمني.

٣- من حيث صياغته الدقيقة ، فلنتأمل اختياره للفعل المضـــارع " تـــرج "، الذى ساهم في تصوير الصورة وكأنها حاضرة بين أيدينا ، فضلا عن الاســـتمرار الذى أفاده الفعل المضارع ، وكأن الشافعي من خلال الفعل المضارع يريد أن يقرر أن السماحة لا ترجى من البخيل مهما طال الزمان ، وتكاثرت الســـنون ، فهـــذه حالة ملازمة له لا تنفك عنه .

٤- من بلاغة هذه الصورة التشبيهية الضمنية ، أنها تحذر المرء أن يطلـــب العطاء من البخيل ، فليس عنده ما يطفئ به ناره.

٥- هذه الصورة التشبيهية بمثابة سهم نافذ للبخلاء ؛ لأنها تكشف بوضوح عدم إرجاء الخير منهم مهما حاولوا التجمل والتزين بلباس الخير.

٦- من بلاغة التشبيه الضمني أنه يقيم الدليل والبرهان على الحكم الصادر ، فالإمام الشافعي عندما نهانا عن طلب السماحة من البخيل ، أقـــام دلـــيلا قاطعـــا وبرهانا ساطعا على كلامه ، بقوله : فَمَا فِي النَّارِ لِلظَّمْآنِ مَاءُ "، فكان لذلك تأثير في النفس ؛لتتقبل هذه الفكرة .

٧- لقد كان الإمام الشافعي دقيقا في اختياره لصورة المشبه به ، حيث اختار المشبه به بعناية فائقة ، لأن رجاء الماء من النار ، يلائم حال البخيـــل ، فكـــأن البخيل ببخله يحرق نفسه.

سادسا : استخدم الإمام الشافعي الصورة الاستعارية في سياق الصمود في مواجهة الأحداث ثماني مرات ، بشقيها : التصريحية والمكنية ، ولا أريد أن أكرر ذكرها مرة ثانية ، ولكنني أريد أن أتوقف عند التوظيف الرائع الذي يخدم السياق التي وردت فيه.

حيث نلاحظ من خلال هذه الصور التي تكررت كثيرا ، أن الغرض من وراء هذا التكرار ، التأكيد على مواجهة الأحداث بكل صمود ورضا .

كما أن كثرة الصور الاستعارية في مقطوعة الشافعي ، يوحي بمدى تأثير الأحداث على الناس ، ولذلك أكثر الإمام منها؛ لتكون تثبيتا وعونا على مواجهة تلك الأحداث ؛ لأن الصور الاستعارية تشخص الأحداث وكأنها حاضرة بين أيدينا ، كما أنها تعمل على إنطاق الجمادات ، كل ذلك يعود تأثيره الإيجابي على المتلقي ، فتراه تسكن نفسه ويرتاح قلبه ، في مواجهة تلك الأحداث .

سابعا: يلاحظ من خلال استعراض الصور الاستعارية عند الإمام الشافعي ، غلبة الاستعارة المكنية على التصريحية ، وذلك لأن الجزع والفزع من وقوع المصائب مشاهد من قبل كثير من الناس ، والاستعارة المكنية أدت دورا ملحوظا في تجسيد وتشخيص تلك الأحداث ، مما ترتب عليه تأثر المتلقي تأثرا مباشرا بتلك الاستعارات ، تدبر – معي – تلك الاستعارة المكنية الرائعة التي وردت في قوله:

وَمَنْ نَزَلتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا ∴ فَلاَ أَرْضٌ تَقِيهِ وَلاَ سَمَاءُ

حيث شبهت المنايا- وهي شيء معنوي- بعدو نزل بساحة قوم (وهو شيء حسي)؛ لتصيب من وقع عليه القدر ، وكأن الناس- من خلال هذا التصوير الاستعاري- يشاهدونها رأي العين ، مما يجعلهم في ترقب وخوف مستمر من نزولها بساحتهم .

ثامنا :هناك كثير من الاستعارات التي أوردها الشافعي كانت عميقة الدلالة ، عذبة الألفاظ ، فضلا عن جمال المعنى الذي انتجته، ولننظر مثلا إلى الاستعارتين اللتين وردتا في البيت الأول من المقطوعة :

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ ∴ وَطِبْ نَفْساً إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ

١- نجد حروف الاستعارتين تتراقص طربا عند قراءة البيت أكثر من مرة .

٢-حققت الاستعارتان وظائف إيجابية عالية في الرضا بالقضاء ، ترغيبا وترهيبا.

٣-عمق الاستعارتين ، فالاستعارة الأولى يشبه فيها الشافعي الدهر بإنسان يفعل ما يشاء ، ولذلك يجب على المحكوم أن يرضى بقضاء حاكمه ، ولا يخرج عليه ، ما دامت المحاكمة عادلة ، تلك الايحاءات فهمت وجسدت من خلال التصوير الاستعاري.

وفي المقابل الاستعارة الثانية شبه فيها القضاء بالسلطان الذي يحكم بين الناس ، فهذه الاستعارة بما لها من دلالة تصور وتجسد القضاء في صورة السلطان الذي يحكم بين الناس ، ويجب عليهم الرضا بحكمه.

تاسعا :نلاحظ من خلال ما سبق عرضه ، أن الإمام الشافعي وظَّف المجاز المرسل توظيفا حسنا في مواجهة الأحداث- بينما خلت منه مقطوعة الإمام علي –ﷺ- وجعله يؤدي دورا رائعا ، وهذا ما ورد في قوله :

وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَلكِنْ ∴ إِذَا نَزَلَ القَضَا ضَاقَ الفَضَاءُ

فقوله :" إذا نزل القضا "، مجاز مرسل ، ساهم كثيرا في تجسيد القضاء في صورة حسية ، مشاهدة من قبل الناس.

عاشرا : استخدم الإمام الشافعي الصورة الكنائية استخداما حسنا ، ووظفها توظيفا رائعا لخدمة السياق ، فمثلا قوله:" إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ "، كناية عن رضا الإنسان بالقليل من المال.

وهذه الكناية تصور لنا بوضوح السعادة والاطمئنان الذي يعيشه أصحاب الأموال القليلة ، الذين يرضون بما قسم الله لهم ، وفي المقابل تشير إلى التعاسة والشقاء الذي يلازم أصحاب الأموال الهائلة.

وقوله:" فَلاَ أَرْضٌ تَقِيهِ وَلاَ سَمَاءُ "، كناية عن عدم منفعة الأسباب عند نزول الموت .

و قوله :" إِذَا نَزَلَ القَضَا ضَاقَ الفَضَاءُ " ، فهذه الكناية جاءت تعضيدا وتوكيدا للكناية السابقة .

ويلاحظ أن أغلب التصوير الكنائي – عنده- ، من قبيل الكناية عن صفة ، ؛ لأن الأسلوب الكنائي من الأساليب البلاغية الفضفاضة ؛ لأنه يحتمل المعنيين (الأصلي – والمعنى المكنى عنه) .

وبذلك يتبين لنا أن الإمام الشافعي استخدم جميع عناصر الصورة البيانية في هذا السياق ، مما كان دليلا واضحا وبرهانا ساطعا على أهمية الصمود في مواجهة الأحداث ، فضلا عن أنه يدل على كثرة الابتلاءات التي تصيب الناس ، مما جعل الشافعي يوظف الصورة البيانية (بكل عناصرها)، في الثبات والقوة والعزيمة أمام هذه الأحداث ، والرضا بها .

وقد تشابه الشافعي – رحمه الله- مع الإمام علي- ﷺ- في تلك الصور ، وإن كان الإمام الشافعي أكثر احتفاءً بالاستعارة التي كان لها دور ملموس في السياق.

وهذا لا يعني الانتصار للإمام الشافعي ، ولا تفضيل شعره علي شعر الإمام علي – ﷺ- ؛ لأن تأدية المعنى المراد بصورة بيانية واحدة قد يكون أدل على بلاغة البليغ من أدائها بعدة صور ، ولا يخفى علينا أن البلاغة الإيجاز.

كما أن طبيعة المخاطبين تختلف من حيث سرعة الفهم ، وقوة القريحة ، والتي كانت في عصر الصحابة في أوجها ، بينما ضعفت في العصور التي تليها ، هذا بالإضافة إلى أن بلاغة الإمام علي – ﷺ- مشهود لها من قبل القاصي والداني.

المبحث الثاني
الصورة البيانية في سياق الحث على طلب العلم

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، يجب علينا أن نشد الرحال من أجل تحصيله ، ونواصل الليل بالنهار في فهم مسائله ، لأنه السبيل الأوحد لمعرفة الله- سبحانه وتعالى- معرفة حقيقة ، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله – تعالى- :" إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ([٤٧]) " .

كذلك نجد رسولنا العظيم يرغبنا في طلب العلم ، فيقول :" من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ، ولا درهما إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر([٤٨]) " .

وفي هذا المضمار جرى الفارسان- (الإمام علي - ﷺ - والإمام الشافعي – رحمه الله-)- في بيان فضل العلم والرفع من شأن أهله ، فيقول الإمام علي – كرم الله وجهه -:

---

[٤٧] – من الآية ٢٨ من سورة فاطر .

[٤٨] – أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء – باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر- برقم – ٢٦٩٩- ورواه الترمذي وأبو داود .

النـــاسُ مـــن جِهَـــة الأبـــاء أكفـــاءُ ∴ أبـــــــــوهُمُ آدمٌ والأُمُّ حـــــــــوّاءُ
وإنمـــا أمهـــاتُ النـــاسِ أوعيـــةٌ ∴ مســـــتودعات وللأحســـاب آبـــاءُ
فـــإن يكـــن لهـــمُ مـــن أصـــلهم شـــرفٌ ∴ يفـــاخرونَ بـــه فـــالطينُ والمـــاءُ
مـــا الفضـــلُ إلا لأَهـــلِ العلـــمِ إنهُـــمُ ∴ علـــى الهـــدى لمـــن اســـتهدى أدِلاَّءُ
وقيمـــةُ المـــرءِ مـــا قـــد كـــان يحســـنُهُ ∴ والجـــاهلون لأهـــلِ العلـــم أعـــداءُ
فَقُـــمْ بعلـــمٍ ولا تطلـــبْ بـــه بـــدلاً ∴ فالنـــاسُ مـــوتى وأهـــلُ العلـــم أحيـــاءُ(٤٩)

ويقول الشافعي– رحمه الله– معبرا عن فرحته ولذته في تحصيل العلم:

سهـــري لتنقيـــحِ العلـــومِ ألـــذُّ لـــي ∴ مِـــنْ وصـــلِ غانيـــةٍ وطيـــبِ عنـــاقِ(٥٠)
وصـــريرُ أقلامـــي علـــى صَـــفَحاتِها ∴ أحلـــى مـــن الدُّوكـــاءِ والعُشَّـــاقِ(٥١)
وألـــذُّ مِـــنْ نَقْـــرِ الفتـــاةِ لِدُفِّهـــا ∴ نقـــري لألقـــي الـــرَّمْلَ عـــن أوراقـــي
وتمـــايُلي طربـــًا لحـــلِّ عَويصـــةٍ ∴ في الـــدَّرسِ أشـــهى مـــن مُدامـــةِ سَـــاقِ
وأبيـــتُ سهـــرانَ الـــدُّجى وتَبيتُـــهُ ∴ نومًـــا وتبغـــي بعـــدَ ذاكَ لحـــاقي ؟(٥٢)

فالإمام علي – ﷺ – يبدأ مقطوعته الشعرية ، بقوله:

النـــاسُ مـــن جِهَـــة الأبـــاء أكفـــاءُ ∴ أبـــــــــوهُمُ آدمٌ والأُمُّ حـــــــــوّاءُ

وهذا كناية عن مساواة الناس جميعا، وهو بذلك يؤكد حقيقة من الحقـائق – ربما غابت عن أذهان كثير من هؤلاء المرضى الذين يتعالون على بعض الناس ،

---

٤٩ – ديوان الإمام علي بن أبي طالب – ص ٢٤ – ت/ محمد عبد المنعم خفاجي– دار ابن زيدون– مكتبة الكليات الأزهرية–

٥٠ – الغانية : المرأة التي استغنت بحسنها عن أدوات التزين .

٥١ – الدوكاء : من داك الرجل المرأة إذا جامعها .

٥٢ – ديوان الإمام الشافعي – ص ٨٧، ٨٨.

ظنا منهم بأنهم أفضل منهم ؛ لحسبهم ونسبهم – ، وهي سواسية الناس من جهة الآباء ؛ لأن أباهم آدم ، وأمهم حواء ، ثم أخبر عن الأمهات فقال :

وإنمـــا أمهـــاتُ النـــاسِ أوعيـــةٌ ∴ مســـتودعات وللأحســـاب آبـــاءُ

حيث شبه أمهات الناس بالأوعية، ووجه الشبه: الحفظ وعدم التدخل في كل .

ثم بين فضل العلماء ، فقال:

مـــا الفضـــلُ إلا لأَهـــلِ العلـــمِ إنهُـــمُ ∴ علـــى الهـــدى لمـــن اســـتهدى أدِلاَّءُ

وقيمـــةُ المـــرءِ مـــا قـــد كـــان يحســـنُهُ ∴ والجـــاهلون لأهـــلِ العلـــم أعـــداءُ

في البيت الأول صورة استعارية تصريحية أصلية ، حيث استعار الهدى للعلم .

والبيت الثاني كله كناية عن فضل أهل العلم على باقي الناس .

ثم رغب في تحصيل العلم ، فقال:

فَقُـــمْ بعلـــمٍ ولا تطلـــبْ بـــه بـــدلاً ∴ فالنـــاسُ مـــوتى وأهـــلُ العلـــم أحيـــاءُ

في البيت صورتان تشبيهيتان في شطرة واحدة ، الأولى منهما تتمثل في قوله:" فالناسُ موتى " ، حيث شبه الناس بلا علم بالأموات ، ووجه الشبه : عدم النفع في كل.

والصورة الثانية تتمثل في قوله:" وأهلُ العلم أحياءُ " ، حيث شبه أهل العلم – بعد موتهم – بالأحياء ، ووجه الشبه :استمرار النفع في كل ، أو تحقيق المراد في كل .

كما أن قوله :" فَقُمْ بعلمٍ ولا تطلبْ به بدلاً "، كناية عن الاستمرار في طلب العلم ، والتمسك به .

كذلك هناك صورة استعارية في قوله :" فقم "، فالقيام هنا مستعار للعناية والاهتمام بالعلم ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

وها هو ذا الإمام الشافعي يوجهنا إلى الجد وسهر الليالي ، من أجل تحصيل العلم ، فيقول :

سهـــري لتنقيـــح العلـــوم ألـــذ لـــي ∴ مـــن وصـــل غانيـــة وطيـــب عنـــاق

في البيت استعارة مكنية رائعة ، حيث شبه ما يجده في نفسه من شعور بالأريحية والسعادة في مسائل العلم ، بشيء حلو يذاق وله طعم ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو " ألذ "، على سبيل الاستعارة المكنية .

وقد تكون الاستعارة تصريحية إذا أجريناها في الفعل " ألذ " ، حيث استعار اللذة وهي شيء حسي، لمتعته وفرحه في تنقيح العلوم، بجامع اللذة والمتعة في كل، واشتق من اللذة الفعل " ألذ "، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

و قوله:" ألذ ليمن وصل غانية وطيب عنـــاق"،كناية عن التمتع بالنساء.**

وفي قوله – أيضا – :" سهـري لتنقيـح العلوم " ،صورة بيانيـة مركبـة ، حيث اشتملت على مجاز مرسل ، علاقته الكلية ، حيث عبر بالكل ، وهو تنقـيح العلوم ، وأراد الجزء وهو تنقيح بعض العلوم ، وإلا فمـن المسـتبعد أن يكـون الإمام الشافعي نقح وهذب جميع العلوم .

واشتملت على صورة كنائية ، وهي الكناية عن تحمل المشاق في تحصـيل العلم ، وتنقيحه .

ويواصل الإمام الشافعي سروره وفرحه في طلب العلم ، فيقول:

وصـــرير أقلامـــي علـــى صـــفحاتها ∴ أحلـــى مـــن الدّوكـــاء(٥٣) والعشـــاق

في البيت استعارة مكنية حيث شبه اللذة الناتجة عن صرير الأقلام بالعسـل ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الحلاوة .

وفي قوله :" وصرير أقلامي "، مجاز مرسل ، علاقته المسـببية ، حيـث عبر بالمسبب وهو صوت الأقلام ، وأراد السبب وهو الكتابة ؛ لأن متعة الشافعي تتحقق بالكتابة ، وليس بمجرد صوت الأقلام .

---

٥٣ – الدوكاء : من داك الرجل المرأة إذا جامعها .

وقوله :" أحلى مـــن الدّوكـــاء والعشـــــاق " ، كناية عن الجماع .

والبيت كله كناية عن الكتابة في تحصيل العلم والمتعة بها .

وما زال الشافعي يمتعنا بصوره البيانية التي تعبر عـــن ســـروره وســـعادته بالعلم، فيقول:

وألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لدفهـــا ∴ نقـــري لألقـــي الـــرمل عـــن أوراقـــي

النقر الأول في البيت على الحقيقة ، والثاني " نقري لألقي "، استعارة لصوت إزالة التراب من فوق الكتب ، مستعار من النقر على الدف، بجامع الصوت الشديد مع النغمة الجميلة في كل .

لأنه جاء في لسان العرب لابن منظور: النقر : ضرب الرحى والحجر وغيـــره بالمنقار . ونقره ينقره نقرا : ضربه . والمنقار : حديدة كالفأس ينقر بها ، وفي غيره : حديدة كالفأس مشككة مستديرة لها خلف يقطـــع بـــه الحجـــارة والأرض الصلبة . ونقرت الشيء : ثقبته بالمنقار . والمنقر بكسر الميم : المعول ([٥٤]).

ويمكن أن نعتبر البيت من قبيل التشبيه بأفعل التفضيل ، حيـــث شـــبه إزالـــة التراب من فوق الكتب بالنقر على الدف ، ووجه الشبه : الصـــوت الشـــديد مـــع النغمة الجميلة في كل.

وقوله :" نقري لألقي الـــرمل عـــن أوراقي " ، كناية عن اهتمامه بالعلم ، والمحافظة على أوراقه ، لأن ذلك ينعكس تلقائيا على حبه للعلم ، ومتعتـــه فـــي تحصيله ، وشغفه بمدارسته .

ويواصل الشافعي صوره البيانية الفاتنة التي يعبر بها عن عشقه لطلب العلم ، فيقول:

وتمـــايلي طربـــا لحـــل عويصـــة ∴ في الـــدرس أشـــهى مـــن مدامـــة ســـاق

---

[٥٤] – ينظر: لسان العرب – لابن منظور – مادة " نقر ".

في البيت استعارة مكنية حيث شبه حالة النشوى والسرور التي يشعر بها من تمكن من بلوغ مسائل دقيقة في علم من العلوم بعد عناء وجهد بالنشوى التي يشعر بها النشوان من الشراب وفضلها ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشي من لوازمه ، وهو الاشتهاء .

وهذا البيت يمكن أن نعتبره أيضا من قبيل التشبيه بأفعل التفضيل.

وقوله :" وتمايلي طربا لحل عويصة"، كناية عن فرحه وسروره بالعلم، عند حل المشكلات، مما يؤكد عشقه وغرامه بميدان العلم .

ويختم الإمام الشافعي مقطوعته الشعرية بقوله :

وأبيت سهران الدجى وتبيته ∴ نوما وتبغي بعد ذاك لحاقي؟

وقوله :" وأبيت سهران الدجى"، كناية عن مواصلته في طلب العلم ، وفيها نفي للمشابهة .

وقوله :" وتبيته نوما "، كنايه عن الكسل والخمول في طلب العلم .

الموازنة بين الصور عند الإمامين من خلال السياق:

أولا :اعتمد الإمامان (علي – ﷺ – والشافعي – رحمه الله –) ، على أساليب بيانية مختلفة ؛ علما منهما أن لها خصوصية كبيرة في إبراز الأمور المعنوية (طلب العلم ، والحث على تحصيله ، والسعي في جني ثماره)، في صور حسية وجلية يفهمها القاصي والداني ، ويقينا منهما أن هذه الأساليب البيانية المختلفة ، ساهمت إسهاما كبيرا – عند الناس – ، في الإقبال على طلب العلم والصبر على تحصيله .

ثانيا :وظفّ الإمام علي – ﷺ – ، الصورة التشبيهية توظيفا رائعا في سياق طلب العلم ، والترغيب في تحصيله ، والجِّد في مسائله ، وكانت –عنده– من أبرز الصور البيانية في هذا السياق.

فقد استخدمها في مقطوعته الشعرية التي تكونت من ستة أبيات ، ثلاث مرات، المرة الأولى في قوله :

وإنما أمهاتُ الناسِ أوعيةٌ ∴ مستودعات وللأحساب آباءُ

وبادئ ذي بدء أقول :– ربما يتسرب إلى أذهاننا أن هذه الصورة لا علاقة لها بطلب العلم – إن هذه الصورة التشبيهية من صميم الترغيب في طلب العلم ، لأنها تقرر هي والبيت الذي سبقها، حقيقة من الحقائق وهي سواسية الناس من جهة آبائهم وأمهاتهم ، وأنه لا تفاضل بينهم إلا على حسب علمهم ، وما يتحصلون عليه من رتب علمية ترفع من شأنهم ومكانتهم في مجتمعاتهم التي يعيشون فيها ، ولذلك يجب عليهم الجد والاجتهاد في سبيل العلم ؛ لبلوغ ما يسعون إليه .

وقد جاءت هذه الصورة التشبيهية محذوفة الوجه والأداة ، مما كان له أكبر الأثر في قرب المشبه من المشبه به وتعانقهما – من حيث الحفظ وعدم التدخل في كل–، كما أنها أتاحت للقارئ الكريم الحرية في استنباط وجه الشبه المناسب.

كما أن الإمام علي – ﷺ – لجأ إلى هذه الصورة التشبيهية ؛ لأنه وجد مقارنة بين الطرفين حتى وإن كانت من جهة واحدة ؛ لأنه ليس من الضروري أن يشترك الطرفان في كثير من الصفات ، وهذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر – رحمه الله– ، بقوله:" فالتشبيه عقد مقارنة تجمع بين طرفين ، لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة أو مجموعة من الصفات والأحوال ، هذه العلاقة قد تستند إلى مشاعر حسية ، وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني

الذي يربط بين الطرفين المقارنين دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان في الهيئة المادية أو في كثير من الصفات المحسوسة (٥٥)".

وكأن الإمام علي – ﷺ – بهذه الصورة التشبيهية يريد أن يقرر أنهما متساويان في الأحساب من جهة الآباء ، وكذلك من جهة الأمهات ؛ لأنهن عبارة عن مستودعات ، فلا فضل من جهة الآباء ولا من جهة الأمهات ، وإنما الفضل بالعلم والعمل ، وهو ما أكده بقوله :" وقيمةُ المرءِ ما قد كان يحسنُهُ ".

ولعل هذه الصورة التشبيهية تشير إلى القصة المشهورة ، حيث كان لأبي حمزة الأعرابي زوجتان فولدت إحداهما ابنة ،فعز عليه واجتنبها وصار في بيت ضرتها إلى جنبها فأحست به يوما في بيت صاحبتها ،فجعلت ترقص ابنتها الطفلة، وتقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا ∴ يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا ∴ تا الله ما ذلك في أيدينا

بل نحن كالأرض لزارعينا ∴ ينبث ما قد زرعوه فينا(٥٦)

المرتان الثانية والثالثة اللتان استخدم فيهما الإمام علي – ﷺ- ، الصورة التشبيهية ، كانتا في قوله :

فَقُمْ بعلمٍ ولا تطلبْ به بدلاً ∴ فالناسُ موتى وأهلُ العلم أحياءُ

---

٥٥ – أسرار البلاغة – ص٨٨- هـ. رنير – دار المسيرة – ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥٦ – القصة متداولة بكثرة في كتب التفاسير، ينظر: مفاتيح الغيب – للرازي – جـ٢٧- ص ١٧٣- دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى- ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م – وتفسير القرطبي – جـ١٦- ص ٧٠- وروح المعاني – للألوسي – جـ٢٥- ص ٧٠- دار إحياء التراث العربي- بيروت- من دون .

فالصورة الأولى منهما تتمثل في قوله :" فالناسُ موتى "، حيث شبه الناس بلا علم بالأموات، ووجه الشبه: عدم النفع في كل .

وهذه الصورة التشبيهية عبرت تعبيرا دقيقا عن مراد الإمام علي – ﷺ – في حثه الناس لطلب العلم ، والسعي لتحصيله ؛ لأن الناس بلا علم لا يفترقون عن الموتى في شيء ، فكلاهما فاقد لصلاحياته.

كما أن هذه الصورة التشبيهية مع إيجازها ، فقد أدت الدور المنوط بها على أكمل صورة ، فلو سطرنا صفحات كثيرة لحث الناس على طلب العلم والهروب من ميدان الجهل ، ما كانت تؤدي ما أدته هذه الصورة التشبيهية في أوجز عبارة.

ومما زاد من قيمتها وبلاغتها ، اشتمالها على حذف الوجه والأداة ، لأن هذه الصورة التشبيهية لها وجوه كثيرة ، منها مثلا : عدم المنفعة في كل ، أو عدم الاهتمام في كل ، أو عدم المبالاة في كل ، أو عدم ....

وفي المقابل تأتي الصورة التشبيهية الثانية" وأهلُ العلم أحياءُ "، لتكشف لنا بوضوح عن قيمة العلم والعلماء ؛ لأن الشيء يظهر بضده ، فالصورة الأولى شبهت الناس بلا علم بالأموات، وهذه الصورة شبهت أهل العلم – حتى بعد رحيلهم – بالأحياء، ووجه الشبه: دوام المنفعة في كل .

وتكمن بلاغة هذه الصورة التشبيهية في تصويرها أهل العلم بالأحياء ، مهما طال عليهم الزمن ، وتعاقبت على موتهم السنون ، إلا أنهم أحياء في ذاكرة الناس ، يستشهدون بكلامهم ، ويلجئون إلى فتواهم ، ويتحصنون بآرائهم ، ويعتمدون علي اجتهادهم في كثير من المسائل العلمية.

وتتجلى بلاغة الإمام علي– ﷺ – في جمعه صورتين تشبيهيتين ، لا نقول في بيت واحد ، وإنما في شطرة واحدة من البيت ، وهذا فن من فنون البلاغة ، أشاد به كثير من علمائها ، ومنهم قدامة بن جعفر الذي استحسنه ،

وقال : إن من مظاهر الحسن في التشبيه ، أن يكون فيه إيجاز ، كأن يجمع الشاعر تشبيهات كثيرة في بيت واحد بألفاظ يسيرة ([٥٧]).

وشاعرنا جمع صورتين تشبيهتين في شطرة واحدة ، ولم يكتف بذلك ، بل ضمنهما صورتين استعارتين ، ؛ لأن طلب العلم وعدمه يمثل الحياة والموت ، حيث استعار الموت للجهل ، بجامع عدم النفع في كل ، واستعار الحياة للعلم ، بجامع المنفعة في كل ،وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله:" أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ([٥٨])".

أضف إلى ذلك تلك الكناية الرائعة التي جاءت في صدر البيت" فَقُمْ بعلمٍ ولا تطلبْ به بدلاً"، كناية عن الاستمرار في طلب العلم، والسعي الحثيث في تحصيله.

وبذلك تكون الصور الخمس قد تعانقت وتشابكت للترغيب في طلب العلم والتحذير من التكاسل في طلبه ، وتعانق الصور التشبيهية مع الصور الاستعارية مع الصور الكنائية ، يعضد ويقوي ما أشرنا إليه في المنهج سابقا ، بأن المنهج الأمثل تناول الصورة البيانية بكل فروعها دون الفصل بين أجزائها ؛ لأن الفصل سيترتب عليه ذهاب كثير من بلاغتها وفصاحتها .فضلا عن التكرار الذي ينتج عن ذلك .

ثالثا :غلبة التصوير الاستعاري عند الإمام الشافعي ، على باقي أساليب الصورة البيانية ، حيث وظَّف الصورة الاستعارية في سياق الترغيب في طلب العلم خمس مرات ، أربعة منها استعارة مكنية ، وواحدة استعارة تصريحية .

أما من حيث غلبة التصوير الاستعاري ، فلعله يرجع إلى حاجة سياق العلم له ، فالإمام الشافعي يخاطب العلماء ويحثهم على الجد والاجتهاد في طلب العلم ، والعلماء هم صفوة المجتمع ، وخيار الناس ، والتصوير الاستعاري يحتاج

---

٥٧ – ينظر: كتاب نقد الشعر– ص ٣٨– مطبعة الجوائب " قسطنطنية "– الطبعة الأولى – ١٣٠٢هـ.

[٥٨] – من الآية ١٢٢من سورة الأنعام .

إلى قدر من التأمل والتدبر ؛ لأنه استعمال الألفاظ في غير حقيقتها ، والعلماء جديرون بهذا التأمل والتدبر.

كما أن الإمام الشافعي عمد إلى العلم – وهو أمر معنوي – فمنحه – من خلال التصوير الاستعاري – حلاوة ، وعسلا ، وطربا ، ولذة ، ومتعة ، وعشقا ، مما ينعكس تلقائيا علي الإقبال عليه بصورة كبيرة.

كما يلاحظ من خلال التصوير الاستعاري المتكرر عند الإمام الشافعي ، الرغبة القوية في الحث على طلب العلم ، وتصويره تصويرا حسيا ، تتذوقه النفوس ، وتتلذذ به العقول ، وتستمتع به القلوب .

كما أن التصوير الاستعاري ، جاء ملائما لسياق العلم ؛ لأن العلم من الأمور المعنوية التي تحتاج في كشفها وإبرازها إلى صور حسية ؛ لأن التصوير الحسي له أثر كبير في النفوس ، ويحقق نتيجة كبيرة في الغرض الذي يستخدم من أجله .

كما نلاحظ أن الإمام الشافعي – من خلال التصوير الاستعاري المتكرر– يهدف إلى تجسيد المعنويات وإعطائها أبعادا مادية محسوسة حتى ليمكن رؤيتها أمام الناظرين؛ ليسهل على العقول إدراكها بمساعدة الشعور والخيال، فالصور الاستعارية إذن لا تخاطب العقل، وإنما المشاعر والخيال.

أضف إلى ذلك :اشتمال الصورة الاستعارية على الجدة ، والابتكار ، والإيجاز ، مما يساعد على الإقبال على طلب العلم ، وهذا الملمح هو ما أشار إليه الإمام عبد القاهر – رحمه الله– عندما تحدث عن بلاغتها ، فقال :" وَمِنَ الْفَضيلَةِ الْجامِعَةِ فيها أَنَّها تُبْرِزُ هذَا الْبَيانَ أَبَدًا في صورَةٍ مُسْتَجَدَّةٍ تَزيدُ قَدْرَه نُبْلًا ، وَتوجِبُ لَه بَعْدَ الْفَضْلِ فَضْلًا ، وَإِنَّك لَتَجِدُ اللَّفْظَةَ الْواحِدَةَ قَدِ اكْتَسَبَتْ بِها فَوائِدَ ، حَتّى تَراها مُكَرَّرَةً في مَواضِعَ ، وَلَها في كُلِّ واحِدٍ مِنْ تِلْكَ الْمَواضِعِ شَأْنٌ مُفْرَدٌ ، وَشَرَفٌ مُنْفَرِدٌ ، وَفَضيلَةٌ مَرْموقَةٌ ، وَخِلابَةٌ مَوْموقَةٌ . وَمِنْ خَصائِصِهَا الَّتي تُذْكَرُ

بِها ، وَهِيَ عُنْوانُ مَناقِبِها – أَنَّها تُعْطيكَ الْكَثيرَ مِنَ الْمَعاني بِالْيَسيرِ مِنَ اللَّفْظِ ، حَتّى تُخْرِجَ مِنَ الصَّدَفَةِ الْواحِدَةِ عِدَّةً مِنَ الدُرَرِ – وَتَجْنِيَ مِنَ الْغُصْنِ الْواحِدِ أَنْواعًا مِنَ الثَّمَرِ([٥٩])".

أما من حيث غلبة الاستعارة المكنية علي التصريحية ، فلعله يرجع إلى خصائص الاستعارة المكنية ، فهي التي تصور الأمور المعنوية – ومنها العلم – في صور حسية معلومة عند الناس ، بالإضافة إلى أنها تحول الجماد إلى ناطق ، وهذا ما نبهنا إليه ، شيخ البلاغيين – الإمام عبد القاهر– ، عندما تناول بلاغة الاستعارة المكنية ، فقال عنها:" فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية. . وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون، وهذه إشارات وتلويحات في بدائعها([٦٠])".

رابعا : يلاحظ من خلال السياق أن الإمام الشافعي ، وظف التصوير الاستعاري توظيفا حسنا للترغيب في طلب العلم ، وجني ثماره.

وإذا ما أردنا التحقق من هذا الكلام ، فلنتوقف قليلا عند بلاغة هذه الصور الاستعارية ، لنتعرف على مدى إسهامها في خدمة السياق .

فلننظر إلى الصورة الأولى التي وردت في البيت الأول :

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي ∴ من وصل غانية وطيب عناق

---

[٥٩] – أسرار البلاغة – ص ١٣٦-١٣٧.
[٦٠] – أسرار البلاغة – ص ٣٣.

فهذه صورة استعارية أدت الغرض المنوط بها على أكمل وجه ، حيث عبرت تعبيرا دقيقا عن مدى حب الشافعي وعشقه للعلم ، حتى صوره في صورة حسية تذاق بالفم.

كما أنها توحي بأن هناك صنفا من العلماء ـ في سبيل تحصيل العلم – يستطيعون أن يستغنوا عن جميع ملذات الحياة ومتعها ، بما فيها تلك المتعة الغريزية ، التي لا يستغنى عنها أحد ، فضلا عن أنها تعبر بوضوح عن المتعة واللذة التي يجدها طالب العلم ، إذا أخلص النية لله – سبحانه وتعالى –.

أضف إلى ذلك مجيء رمز المشبه به في صورة أفعل التفضيل " ألذ "، مما يؤكد تفوق المستعار له على المستعار.

والصورة الاستعارية الثانية التي وردت في قوله :

وصرير أقلامي على صفحاتها ∴ أحلى من الدُّوكاء والعشاق

تلك الاستعارة التي صورت اللذة الناتجة عن صرير الأقلام بالعسل ، هكذا وصف الشافعي متعته أثناء الكتابة ، وهذا يدل – بوضوح– على أن هؤلاء العلماء قدموا العلم على كل حظوظ الدنيا وشهواتها .

ومما زاد من قيمة هذه الصورة الاستعارية ، صياغتها الدقيقة التي وردت عليها ، حيث عبر بالجمع في قوله :" وصرير أقلامي "، مما يدل على كثرة أقلام الشافعي ، وليس هذا هو المقصود ، وإنما المقصود الأساسي من وراء هذا الجمع ، جِدُّهُ واجتهاده واهتمامه بالعلم ، مما انعكس تلقائيا على كثرة أقلامه .

كذلك الجار والمجرور في قوله :" على صفحاتها"، مما يوحي بأن أصوات أقلامه ناتجة عن الكتابة ، وليس مجرد اللعب أو العبث بها ، بالإضافة إلى مجيء الجار والمجرور على صيغة الجمع .

أضف إلى ذلك مجيء رمز المشبه به في صيغة أفعل التفضيل " أحلى "، مما يزيد من المتعة واللذة التي يجدها الشافعي في صوت أقلامه ، وكل ذلك يعبر

لنا بوضوح عن مدى عشقه للعلم ، وإلا فما كان يصل إلى المكانة التي وصل إليها ، إن لم يكن هذا من طبعه .

وإن ننسى فلا ننسى أن هذه الصورة الاستعارية ، توحي بأنه يوجد صنف من العلماء يستمتعون بالتعامل مع أوراقهم ، وصرير أقلامهم ، ويشعرون بلذة تتفوق على كثير من الملذات الحسية .

الصورتان الثالثة والرابعة اللتان وردتا في قوله :

وألذ من نقر الفتاة لدفها ∴ نقري لألقي الرمل عن أوراقي

فهذا البيت اشتمل على صورتين استعارتين في غاية الروعة والجمال ، الأولى منهما ، الاستعارة المكنية التي صورت لنا الصوت الجميل والنغمة الخاصة التي تحدث عند إزالته الرمل عن أوراقه ، بشيء حلو يذاق وله طعم جميل ، هكذا يشعر الإمام الشافعي .

الاستعارة الثانية ، الاستعارة التصريحية التي وردت في قوله :" من نقر "، حيث استعار النقر ، لضرب الفتاة لدفها .

وأول ما يستوقفنا في هذه الصورة الاستعارية ، أن حروفها تتراقص طربا عند قراءة البيت أكثر من مرة ، وكأن الألفاظ تتراقص طربا ، كما تتراقص الفتاة عند ضربها لدفها .

وثاني ما يزيد من طربنا وسرورنا بهذه الصورة الاستعارية ، التقديم والتأخير الذي ورد في صياغتها ، فلو أن الشافعي سار على نفس المنهج في الأبيات السابقة ، لقال:

ونقري لألقي الرمل عن أوراقي ∴ ألذ من نقر الفتاة لدفها

ولكن الشافعي بهذا التقديم أحدث عندنا نوعا من الطرب والتمايل واللذة والمتعة ، كنا سنفقد جزءا كبيرا منه ، لو لم يحدث هذا التقديم .

أضف إلى ذلك أن التقديم والتأخير هنا أفاد تشويق القارئ ؛ ليستكمل قراءة البيت ؛ لأنه عندما قرأ الشطر الأول ، تساءل عن الشيء الأكثر لذة من نقر الفتاة لدفها ؟ فجاءته الإجابة في الشطر الثاني " نقري لألقي الرمل عن أوراقي ".

هذا بالإضافة إلى اختياره لأجزاء الصورة الاستعارية ، حيث اختيار لفظ " نقر "، الذي يدل على الشدة في الصوت والضرب الشديد ، مما يجعل الفتاة تزيد في طربها وتمايلها ، وكل ذلك ينعكس تلقائيا على متعة الإمام الشافعي ولذته.

أضف إلى ذلك اختياره للفظ "الفتاة" ،– وليست المرأة المسنة– التي تنقر في دفها ، وتزداد طربا وتمايلا ؛ لصغر سنها .

الصورة الاستعارية الأخيرة وردت ، في قوله :

وتمايلي طربا لحل عويصة ∴ في الدرس أشهى من مدامة ساق

تلك الصورة المكنية التي أبرزت وصورت الشيء المعنوي – وهو التفكير والتدبر والتأمل ، لحل عويصة – في صورة شيء حسي ، له طعم شهي ، تتلذذ به النفوس ، وكل ذلك يؤكد عشقه وغرامه بالعلم .

خامسا :الإمام الشافعي استخدم أسلوب المجاز المرسل في سياق الترغيب في طلب العلم ثلاث مرات ، ووظفه توظيفا مناسبا ، فلننظر مثلا إلي المجاز المرسل الذي ورد في قوله :

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي ∴ من وصل غانية وطيب عناق

ففي قوله:" سهري لتنقيح العلوم " ، مجاز مرسل ، علاقته الكلية ، حيث عبر بالكل وهو تنقيح العلوم ، وأراد الجزء ، وهو تنقيح بعض العلوم ، وإلا فمن المستبعد أن يكون الإمام الشافعي نقح وهذب جميع العلوم .

وتكمن بلاغة هذا المجاز في اجتهاده وتنقيحه لكثير من العلوم ، وهذا يدل على مواصلته للعلم بلا انقطاع .

المجاز المرسل الثاني ، ورد في قوله :

وصـــرير أقلامـــي علـــى صـــفحاتها ∴ أحلـــى مـــن الدّوكـــاء والعشـــاق

فقوله :" وصرير أقلامي "، مجاز مرسل ، علاقته المسببية ، حيث عبر بالمسبب وهو صوت الأقلام ، وأراد السبب وهو الكتابة ؛ لأن متعة الشافعي تتحقق بالكتابة ، وليس بمجرد صوت الأقلام ، ولكن التعبير بالمجاز هنا أعطى إيحاءا علي جد واجتهاد الشافعي ، حتى يُسمَع صوت أقلامه.

المجاز المرسل الثالث ، ورد في قوله:

وألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لدفهـــا ∴ نقـــري لألقـــي الـــرمل عـــن أوراقـــي

فقوله :" نقري لألقي الرمل عن أوراقي " ، مجاز مرسل ، علاقته المسببية ، حيث عبر بالمسبب ، وهو إزالة الرمل عن أوراقه ، وأراد السبب وهو الكتابة ، لأنه لماذا يلقي الرمل عن أوراقه ؟ من أجل أن يكتب فيها .

وتكمن بلاغة هذا المجاز في اهتمام الشافعي بأوراقه ، وهذا ينعكس تلقائيا على حبه وغرامه للعلم .

سادسا: استخدم الإمام الشافعي الصورة الكنائية – في سياق الترغيب في طلب العلم– ست مرات ، ووظفها توظيفا مباشرا لخدمته ، وجعلها تؤدي دورا ملحوظا للجميع ؛ لأن الكناية من الأساليب الكنائية التي تحمل المعنيين (المعنى الحقيقي ، والمعنى المكنى عنه)، مما جعلها تسهم إسهاما كبيرا في الإقبال على طلب العلم، ولا سيما عندما وظفها الشافعي في المتعة التي يشعر بها عند تحصيله العلم ، فلنتأمل تلك الكناية الرائعة التي وردت في قوله :

وصـــرير أقلامـــي علـــى صـــفحاتها ∴ أحلـــى مـــن الدّوكـــاء والعشـــاق

فقوله:"أحلى من الدّوكاء والعشاق"، كناية عن الجماع، أي من متعة الجماع ، وعشق النساء .

فيا ترى ماذا يريد الشافعي من هذه الكناية؟ يريد بأن أصوات أقلامه، أحلى من الحب، والمتعة، واللذة، والعشق، والغرام والشغف، كل هذه الصفات المحسوسة ، التي تستهوي كثيرا من الناس ، إلا أن متعة العلم عند الشافعي تفوق هذه الأشياء.هكذا وصف الشافعي متعته أثناء الكتابة .

وتدبر كنايته التي وردت ، في قوله:

وألذ من نقر الفتاة لدفها ∴ نقري لألقي الرمل عن أوراقي

فقوله :" نقري لألقي الرمل عن أوراقي " ، كناية عن اهتمامه بالعلم ، والمحافظة على أوراقه ،وهذه الكناية تكشف بوضوح عن مدى حبه للعلم ، ومتعته في تحصيله ، وشغفه بمدارسته .

واستمتع بكنايته التي وردت في قوله :

وتمايلي طربا لحل عويصة ∴ في الدرس أشهى من مدامة ساق

فتمايله طربا لحل عويصة ، كناية عن فرحه وسروره بالعلم ، حتى عند وجود بعض المشكلات ، مما يؤكد عشقه وغرامه بميدان العلم .

ولا ننسى الكنايتين اللتين ختم بهما الشافعي مقطوعته الشعرية ، واللتين كانتا في غاية الروعة :

وأبيت سهران الدجى وتبيته ∴ نوما وتبغي بعد ذاك لحاقي ؟

فقوله :" وأبيت سهران الدجى"، كناية عن مواصلته في طلب العلم ، وهذه الكناية تعبر لنا بوضوح عن الجهد والمشقة التي كان يبذلها الإمام الشافعي في سبيل طلب العلم .

وقوله :" وتبيته * * نومـــا "، كنايه عن الكسل والخمول في طلب العلـــم ، وهذه الكناية تشير إلى أن العلم يحتاج إلى صبر ومصابرة ومشقة مـــن أجـــل أن يتحصل عليه.

وبذلك تكون الصورة الكنائية أدت دورها الفاعل عند الشافعي في الترغيب في طلب العلم والترهيب من التكاسل فيه؛ لأن الكناية مظهر من مظاهر الصـــورة البيانية ، لا يستطيعه إلا ماهر بخصائص الصورة الكنائية ، والتي من أهمهـــا : التعبير عن المعاني الكثيرة ، بألفاظ قليلة، فكم من المعاني التي فهمت من الكناية التي وردت في قول الشافعي : " وأبيت سهـــران الدجى "، حيـــث فهـــم منهـــا، المشقة ، والجهد ، والتعب ، والصبر، وإعمال الفكر.

ومن خصائصها أيضا، ترك التصريح باللفظ المفحش إلى ما يـــدل علـــى معناه ، وهذا ما ورد في قول الشافعي :" أحلى مـــن الدّوكـــــاء والعشـــــــاق" ، حيث ترك الشافعي التصريح بلفظ الجماع، وأتى بمعنى يدل عليه.

ومن خصائصها أيضا، أنها تصور لك الأشياء المعنوية في صورة المحسوسات ، مما يكون له أثر إيجابي على المتلقي ، ولعل هذا ما ورد في قول الشافعي:

وألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لدفهـــا ∴ نقـــري لألقـــي الـــرمل عـــن أوراقـــي

فهذه الكناية صورت لنا الشيء المعنوي – وهو اهتمام الشافعي بالعلم- فـــي صورة شيء حسي ، وهو إزالة الرمل عن الأوراق .

ومن خصائصها أيضا ، التعريض بالخصم من وراء الحجاب ، ولعل هـــذا ما ورد في قول الشافعي : " وتبيته * * نومـــا وتبغي بعـــد ذاك لحـــاقي " فهذه كناية يعرض فيها الشافعي بهؤلاء الكسالى ، الذين يقضون أوقاتهم في النوم ، ثم بعد ذلك يريدون أن يدخلوا حلبة السباق مع الشافعي ؟!

سابعا :أما من حيث خلو مقطوعة الإمام الشافعي من الصور التشبيهية ، لاستغناء السياق عنها ، ولتمام مناسبة الاستعارة والكناية والمجاز المرسل للمعاني التي وردت فيها .

أو أن الشاعر يأتي بالصورة التي من وجهة نظره تعبر عن المعنى المراد.

مع العلم أن مقطوعة الإمام علي – ﷺ– اشتملت على ثلاث صور تشبيهية، عبرت تعبيرا رائعا عن الترغيب في طلب العلم، والترهيب من التكاسل في طلبه؛ لأن ذلك يمثل الحياة والموت .

المبحث الثالث

الصورة البيانية في سياق مخاطبة السفيه

مما لا شك فيه ، أن الحكمة في الكلام ، نعمة كبيرة ، يهبها الله – سبحانه وتعالى – ، لمن يشاء من عباده ،" يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ([٦١])".

ولذلك نجد صنفا من الناس ، يفتقد تلك النعمة ، ويخاطب الآخرين بكلام ، يؤذي مشاعرهم، ويجرح أحاسيسهم، ويغلي دماءهم ، ويجعل الشيطان سيد موقفهم .

ولكن القوي الشديد الذي يملك زمام نفسه عند مخاطبة هؤلاء له ، ويمتثل حديث رسول الله – ﷺ- :"ليس الشديد بالصُّرْعة؛ إنما الشديد الذي يَملك نفسه عند الغضب ([٦٢])" ، وينتظر – بحلمه على هؤلاء – الثواب الذي أخبر به ربنا – جلَّ في علاه–، عندما قال :" وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ،

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ([٦٣]).

وإلى الحلم، والعفو، والصفح ، والحكمة، يدعونا الإمامان (علي – ﷺ – ، والشافعي – رحمه الله–)، في مخاطبة السفيه، فيقول الإمام علي – ﷺ –:

---

[٦١] – الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .

[٦٢] – أخرجه البخاري في كتاب الأدب – باب الحذر من الغضب – برقم ٥٧٦٣– وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل من يملك نفسه عند الغضب – برقم ٤٧٢٣.

[٦٣] – الآيات ١٣٤– ١٣٦ من سورة آل عمران .

وذو ســـفهٍ يـــواجهني بجهـــلٍ ∴ وأكـــره أن أكـــون لـــه مجيبـــا
يزيـــد ســـفاهةً وأزيـــد حلمًـــا ∴ كعُـــودٍ زاد بـــالإحراق طيبـــا(٦٤)

وفي المعنى نفسه ، يقول الشافعي :

يُخَـــاطِبني السَّـــفيهُ بِكُـــلِّ قُـــبْحٍ ∴ فـــأكرهُ أن أكـــونَ لـــه مجيبـــا
يزيـــدُ ســـفاهةً فأزيـــدُ حلمًـــا ∴ كعـــودٍ زادهُ الإحـــراقُ طيبـــا (٦٥)

الموازنة بين الصور عند الإمامين من خلال السياق:

أولا : تقارب الإمامين (علي – ﷺ – والشافعي – رحمه الله –)، في هذا السياق ، من حيث المعاني ، والألفاظ ، فمعاني المقطوعتين واحدة ، فكلتيهما تخبر عن حال السفيه عند مخاطبته للناس ، وما يقابل به من حلم زائد ، كلما زاد سفاهة.

كما أن ألفاظهما تكاد تكون متقاربة بصورة كبيرة ، ولا أدري إن كان هذا من باب توارد الخواطر ، أم أن الشافعي اقتبس أبياته من الإمام علي – ﷺ – ؟!.

ولذلك توقفت كثيرا عند هاتين المقطوعتين ، حتى كدت أجزم بأنهما لشاعر واحد ؛ لقربهما قربا شديدا في الألفاظ والمعاني ، إلا أنني رجعت إلى أكثر من ديوان محقق للإمامين ، فوجدت كل ديوان يثبت الأبيات لصاحبها كما جاءت في صلب المبحث ، وأحب أن أحيل القارئ الكريم إلى ذلك(٦٦).

---

٦٤ – ديوان الإمام علي – ﷺ – ص ٣٨.
٦٥ – ديوان الإمام الشافعي – ص ٢١.
٦٦ – ينظر: ديوان الإمام علي – ﷺ– ص ٣٨– ت/ د/ محمد عبدالمنعم خفاجي– دار ابن زيدون– مكتبة الكليات الأزهرية–من دون – وديوان الإمام علي – ﷺ– ص ١٧– جمع وترتيب / عبدالعزيز الكرم– الطبعة الأولى– ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م– ديوان الإمام علي – ﷺ – ص ٣٢– بدون تحقيق – وديوان الإمام الشافعي – رحمه الله– ص ٢١–اعتنى به / عبدالرحمن المصطاوي– دار

ثانيا :الصورة البيانية البارزة في هذا السياق– عند الإمامين – ، هي الصورة التشبيهية التمثيلية ، حيث شبه كل منهما ، حاله عندما يخاطبه السفيه بالقبح بحالة العود طيب الرائحة الذي يزيد انتشار طيبه كلما زاد الإحراق ، ووجه الشبه : زيادة الحسن والجمال في مقابل زيادة القبح .

ثالثا :اتفاق الإمامين في ردهما على مخاطبة السفيه ، على الصورة التشبيهية التمثيلية ، دليل قاطع ، وبرهان ساطع ، وحجة قوية على إيمانهما العميق ، وفهمهما الدقيق لكتاب ربهما العزيز ، الذي يدعو كل مؤمن إلى الصفح والعفو عن هؤلاء الذين يجهلون كثيرا من أمور دينهم ، ويخاطبون الناس بكل سفه وقبح ، متناسين أخلاق نبيهم العظيم – ﷺ–، الذي نشر الإسلام في ربوع الأرض ، بحلمه وعفوه عن هؤلاء الجهلاء.

أضف إلى ذلك : أن اتفاقهما في نوع الصورة التشبيهية – من حيث التمثيل – ، كان مناسبا مع سياق مخاطبة السفيه ، لأن التشبيه التمثيلي له تأثير كبير على النفوس في مثل هذه الأمور ، بالإضافة إلى أنه يحقق أغراضا متعددة تسهم بشكل كبير في الصبر والحلم على مخاطبة السفيه ، ويكفينا أن نشير إلى كلام الإمام عبد القاهر– طيب الله ثراه– ، عن التمثيل وأثره ، حيث قال عنه :" واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك

المعرفة – بيروت – لبنان –الطبعة الثالثة – ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م – وديوان الإمام الشافعي – ص ٢٠– تعليق وتقديم / محمد إبراهيم سليم– مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع – من دون – والأبيات منسوبة إلى الشافعي في كتاب الجوهر النفيس في أشعار محمد بن أدريس – ص ٨– جمع / محمد مصطفى – ط النيل– بمصر– ١٩٠٣هـ– وموسوعة الشعر الإسلامي– جمع وإعداد / علي نايف الشحود – جـ٤٩– ص ١٥– من دون.

النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطبائع على أن تعطيها محبة وشغفا .

فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغرر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد .

وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر .

وإن كان افتخارا كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد.

وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظا كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغيابة ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفي الغليل([٦٧])".

رابعا : اتفاق الإمامين – بصورة كبيرة – في ألفاظ الصورة التشبيهية التمثيلية ، وهذا ما ظهر في النقاط التالية :

١- صورة المشبه عندهما تكاد تكون واحدة ، فعند الإمام علي – ﷺ – ، تمثلت في قوله :" يزيد سفاهةً وأزيد حلماً "، وعند الإمام الشافعي – رحمه الله ، تمثلت في قوله :" يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حلماً ".

حيث آثر الإمامان ، الفعل المضارع " يزيد "، الذي يصور لنا الحدث ، ويضع المستمع في قلب معمعة الحوار، بالإضافة إلى الاستمرار الذي يدل عليه ،

---

[٦٧] – أسرار البلاغة – ص ١٢٣.

مما يعطي دلالة واضحة على أن الإمامين ، مهما زاد السفيه في سفهه ، فهما في أتم الاستعداد على قبول هذا السفه بكل رضا وحلم .

كما أن الإمامين اتفقا في نوع الزيادة " سفاهة "، ولكي نعرف حلمهما وما تمتعا به من عفو وصبر ، يجب علينا أن نشير إلى بعض صفات السفيه ، ومن أهمها :عدم احترامه للآخرين ، وعدم تورعه عن الإساءة بكل ما أوتي من قبح ، بالإضافة إلى تدخله فيما لا يعنيه ، ومع ذلك فهما في ذروة الحلم والعفو ، وإذا كان هذا حالهما مع السفيه ، فما بالك لو خاطبهما واعتدى عليهما – بالكلام- صاحب حق ؟!

كما أن الإمامين اتفقا في الصفة التي يقابلان بها مخاطبة السفيه "وأزيد حلما"، وما أدراك ما الحلم ؟ ، فالذي يرزق هذه الصفة ، فقد رُزِقَ خيرًا كثيرًا.

وعمد الإمامان إلى تكرار فعل الزيادة (يزيد سفاهةً وأزيد حلماً) ؛ للتأكيد والإلزام والاستمرارية بتمسكهما بصفة الحلم ، مهما تطاول معهما السفيه .

اتفاقهما في أداة التشبيه " الكاف "، مما يوحي أن الإمامين يعلمان تمام العلم خطورة الرد على السفيه بغير الحكمة ، ولذلك آثرا أداة التشبيه " الكاف " التي تدل علي الشبه والمماثلة ، أي سنزداد حلما كلما زاد السفيه سفاهة ، كما يزداد العود طيبا بالإحراق ؛ لأن الكاف من أشهر معانيها " التشبيه " ، وهذا ما أكده الإمام سيبويه – رحمه الله – عندما قال :" وكاف التشبيه التي تجيء للتشبيه ، وذلك قولك : أَنْتَ كَزَيْدٍ([٦٨])".

أضف إلى ذلك أن الكاف المفردة لم تأت في لغة العرب – فيما أعلم – لغير التشبيه([٦٩]). ومن هنا كان إيثار أداة التشبيه " الكاف ".

---

[٦٨] – الكتاب ، ٤ / ٢١٧.

[٦٩] – ينظر: المقتضب ، ١ / ٣٩.

أضف إلى ذلك أن الإمامين أظهرا طرفي التشبيه بشكل واضح من خلال أداة التشبيه (الكاف)، التي توسطت بين المشبه والمشبه به؛ لأن تقارب المشبه به من أداة التشبيه (كعُودٍ)، ساهم في قرب المشبه من المشبه به بصورة كبيرة .

٣-اتفاقهما في اختيار صورة المشبه به بعناية فائقة " كعود "، كان اختيارا موفقا منهما ؛ لأن العود هو الذي يعبر عن حالتيهما الهادئة والحليمة اللاتين يقابلان بها جهل السفيه.

٤-اتفاقهما في القيد الذي وردا في صورة المشبه به " زادهُ الإحراقُ طيبا " ، هذا القيد أضفى على الصورة التمثيلية ، - وخصوصا وجه الشبه – روعة وجمالا ، وحقق الغرض المنشود من وراء الصورة التشبيهية تحقيقا كاملا ؛ لأن هذا القيد يصور لنا – بوضوح- حالتهما الهادئة الساكنة ، كلما زاد السفيه قبحا ، ازداد الإمامان حلما ، كما تزداد رائحة الطيب بكثرة الإحراق ، لأن القيد الذي ورد في صورة المشبه به ينعكس أثره تلقائيا على صورة المشبه .

خامسا :أما من حيث الاختلاف في أجزاء الصورة التشبيهية ، فالإمام علي – ﷺ – جعل حرف العطف في صورة المشبه " الواو"، (يزيد سفاهةً وأزيد حلماً)، والإمام الشافعي – رحمه الله – ، جعل حرف العطف " الفاء"، (يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حلماً).

ولعل إيثار الإمام علي – ﷺ – لحرف العطف " الواو " يفيد أن الحلم أصبح مصاحبا وملازما له ، مع أي سفيه ومع أي درجة من درجات السفه ؛ لأن الواو من معانيها المصاحبة ، وهذا أبلغ من حرف العطف " الفاء " الذي آثره الإمام الشافعي – رحمه الله- ؛ لأن " الفاء " تفيد أن حلمه يزداد بعد السفاهة ، وهذا بخلاف الإمام علي – ﷺ – الذي صار حلمه مصاحبا له لا ينفك عنه .

أضف إلى ذلك أن حرف العطف " الواو "، كان مناسبا لحال الصحابة – رضوان الله عليهم –، وما كانوا يتمتعون به من تمهل وثقل في الإيمان ، وعمق

في الرد. بالإضافة إلى أن الإمام علي – ﷺ – ، كان يتمهل في الحلم ؛ خوفا من أن يكون السفيه تكلم بكلام يمس العقيدة والدين ، وهنا لا ينفع الحلم ؛ لأن هؤلاء الكرام كانوا حلماء في الأمور التي تنال من شخصيتهم- ابتغاء وجه الله- ، أما إذا كان الأمر يتعلق بحد من حدود الله ، فالأمر على العكس تماما ، تراهم يثورون كموج البحار في العواصف .

كما أن إيثار الإمام الشافعي – رحمه الله – ، لحرف العطف " الفاء" ، يمثل العصر الذي عاش فيه ، فالأجيال بعد جيل الصحابة ، تغيرت وتبدلت وضعفت من حيث العقيدة والأخلاق ، فكأن الإمام الشافعي يخبر بسرعة حلمه الزائد بالرغم من تجاوز السفيه معه في القبح ، وأنه لم يتردد لحظة واحدة في مقابلة كل ذلك بالحلم والعفو والرضا ، وهذا ما يفيده حرف العطف " الفاء ".

ومن الاختلاف – أيضا – بين أجزاء الصورة التشبيهية ، أن الإمام علي – ﷺ – في صورة المشبه به ، قال:" زاد " ، والإمام الشافعي – رحمه الله – ، قال:" زاده " ، فلعل زيادة الضمير– الذي يعرب مفعولا به- عند الإمام الشافعي ؛فيه تخصيص وفيه زيادة متنفس على سفه السفيه ، أو أن هذا المد المصحوب من النطق ، يوحي بمدى قبح الألفاظ التي خرجت من السفيه ،- حتى وإن كنا نتحدث عن صورة المشبه به ، وليس المشبه ، إلا أن كل ذلك ينعكس تلقائيا على صورة المشبه – ، وخلو الفعل عند الإمام علي – ﷺ – من الضمير يناسب أخلاق الصحابة – رضي الله عنهم –، لأنهم قريبو عهد بأخلاق النبوة ، فجاءت ألفاظهم محكمة معبرة.

ومن الاختلاف – أيضا – بين أجزاء الصورة التشبيهية ، أن الإمام علي – ﷺ – ، أتى بالباء في قوله: " بالإحراق "، والإمام الشافعي ، قال :"الإحراق "، ولعل حذفها عند الإمام الشافعي ، جاء مناسبا لزيادة الضمير في قوله :" زاده "، ومجيئها عند الإمام علي – ﷺ – جاء مناسبا لحذف الضمير في قوله :" زاد ".

أضف إلى ذلك أن " الباء " تفيد المصاحبة ، وكآن الإحراق مصاحب وملازم للعود، مما يترتب عليه زيادة رائحته الطيبة ، وبهذا تتفق صورة المشبه به مع صورة المشبه ، فلما كان الحلم مصاحبا وملازما للإمام علي – ﷺ – ، كذلك الإحراق مصاحبا وملازما للعود ، مما يوحي بدقة الإمام علي – ﷺ – في ربطه بين المشبه والمشبه به.

أو أن قول الإمام علي – ﷺ– " كعُودٍ زاد بالإحراق طيبا"، جعل الفعل واقعا من العود ؛ دلالة على أن الطيب أصل فيه ، وهو ما يتفق مع استخدامه لحرف العطف " الواو".

وعند الإمام الشافعي " كعودٍ زادهُ الإحراقُ طيبا "، فاستخدام الضمير هنا يشير إلى أن صدور الرد الحسن ؛ ليقابل رد السفيه ، فهو رد فعل ، والفرق بينهما كبير.

سادسا : مقطوعة الإمام علي – ﷺ –، اشتملت على صورة بيانية أخرى- ساهمت إسهاما كبيرا في تجلية صورة السفيه – ، وهي المجاز المرسل في قوله:" وذي سفهٍ يواجهني بجهلٍ "،

وعلاقته المسببية ، حيث عبر بالمسبب وهو الجهل ، وأراد السبب وهو الفحش والسفه في الألفاظ ، المتسببة عن الجهل .

وتكمن بلاغة هذا المجاز في تصويره حالة السفيه، المسيطرة عليه من خلال جهله ، وما ينتج عن هذا الجهل من ألفاظ بذيئة رديئة ، يخاطب بها الإمام على – كرم الله وجهه –، والإمام – بحلمه وعفوه وما طبع عليه من أخلاق – ، يكره أن يجيبه بأي لفظ .

كما أن هذا المجاز يعطي دلالات واضحة وإشارات بينة ، على أن نصح هذا السفيه ووعظه لا يجدى معه شيئا ؛ لأن ما يصدر منه ناتج عن جهل وطبع

أصيل فيه ، هذا بالإضافة إلى أن هذا المجاز يوحي بمدى سعة حلم الإمام على – ﷺ –، وعظيم تحمله لسفه هذا الرجل، وكل ذلك ناتج عن تربيته في بيت النبوة.

في حين أننا نجد الإمام الشافعي – رحمه الله– جاء تعبيره بالحقيقة (يُخَاطِبني السَّفيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ)، والحقيقة لا تؤدي ما يؤديه المجاز ؛ لأن المجاز وسيلة من الوسائل التي تساعد على بلاغة التعبير ، فضلا عن وقعه الحسن في نفوس المتذوقين ، وهذا ما أشار إليه علماء البلاغة الأجلاء ، فها هو ذا ابن الأثير يفضل استعمال المجاز على الحقيقة ، فيقول :"المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة والبلاغة، لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة التى هى الأصل أولى منه حيث هو فرع عليها([٧٠])".

[٧٠] – المثل السائر – لابن الأثير – جـ١ –٧٨– تحقيق الدكتورين / الحوفى وطبانة– القاهرة– من دون.

المبحث الرابع
الصورة البيانية في سياق الزهد في الدنيا

من المُسلَّم به أن الدنيا بحر عميق ، يغرق فيه كثير من أولئك الـذين لا يجيدون فن السباحة ؛ لأنها تحتاج إلى سابح ماهر بعمقها- غير المعـروف – ، وأمواجها المتقلبة التي لا تستقر على حال واحدة ، ولذلك نجـد قرآننـا العظـيم صورها لنا في صورة تشبيهية تمثيلية – وضحت لنا حقيقتها على أكمل وجه – ، فقال :" إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَـنَّ أَهْلُهَـا أَنَّهُـمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[٧١]".

كما أن رسولنا الكريم – ﷺ – أعطانا بيانا شافيا عن قصر مدة الـدنيا ، فقال :" ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعلُ أحدكم أصبعه في اليم، فينظـر بمـا يرجع؟ [٧٢]".

ويأتي دور الشعر ؛ ليضرب له بسهم في دعوة الناس إلى الزهد في الـدنيا ، وترك الانشغال بها ، والرغبة القوية في الآخرة ، فيقول الإمام علي- ﷺ -:

حَياتُـكَ أنفـاسٌ تعَـدُّ فكُلّمـا ∴ مضـى نفـسٌ انقصَـت بـهِ جُـزءا
ويحييـك مَـا يُنفيـكَ في كـلِّ حالـةٍ ∴ ويحـدوكَ حـادٍ مايُريـدُ بـكَ الهـزءا[٧٣]
فتصـبحُ في نفـسٍ وتمشـي بغيرهـا ∴ ومالـكَ مِـن عقـلٍ تُحـسَ بـه رزءا[٧٤]

---

[٧١] – الآية ٢٤من سورة يونس .
[٧٢] – أخرجه مسلم في كتاب الجنة- باب فناء الـدنيا وبيـان الحشـر..، رقـم (٢٨٥٨).
[٧٣] – الحادي : السائق . حداه : ساقه .

ويقول الإمام الشافعي – رحمه الله- :

إنَّ لله عبـــــــادًا فُـــــــطنَا ∴ طَلَّقـــوا الـــدُّنيا وخافـــوا الفِتَنـــا

نظـــــروا فيهـــا فلمَّـــا عَلمُـــوا ∴ أنَّهـــا ليـــست لِـــحيٍّ وَطَنـــا

جـــعلوها لُجَّـــةً(٧٥) واتخـــذوا ∴ صـــالِحَ الأعمـــالِ فيهـــا سُـــفُنا(٧٦)

الموازنة بين الصور عند الإمامين من خلال السياق:

أولا :يدعونا الإمام علي – ﷺ – إلى الزهد في الدنيا وترك الانشغال بها والإقبال على الآخرة، من خلال استعانته ببعض الصور البيانية – التي كشفت لنا بوضوح عن حقيقتها الزائفة ولباسها البالي- ، ويأتي في مطلع هذه الصور، تلك الصورة التشبيهية البليغة التي صورت لنا قصر مدة البقاء فيها، فيقول:

حَياتُـــكَ أنفـــاسٌ تعَـــدُّ فكُلّمَـــا ∴ مضـــى نفـــسٌ انقصَـــت بـــهِ جُـــزءا

حيث شبه حياة الإنسان بالأنفاس المعدودة ، ووجه الشبه : السرعة والقصر وعدم الأمان في كل .

وهذه صورة تشبيهية بليغة ، استطاع الإمام توظيفها لأداء المعنى الذي يريده، حيث عبرت تعبيرا دقيقا عن قصر البقاء في الدنيا ، وأدت الدور المنوط بها على أكمل وجه ، وكشفت بوضوح عن بلاغة الإمام علي – ﷺ-، مع أن بلاغته من المسلمات التي لا شك فيها.

ولكي نقيم الدليل على بلاغة هذه الصورة ، ومدى تأثيرها في السياق ، يجب علينا أن نتوقف عند النقاط التالية :

---

٧٤ – ديوان الإمام علي – ﷺ – ص ٢٩.

٧٥ – اللجة : الماء الكثير .

٧٦ – ديوان الإمام الشافعي – رحمه الله – ص ١١١- ١١٢.

١- الصورة تنسب إلى التشبيه البليغ الذي حذف وجهه وأداته ، وهذه الصورة أعلى مراتب التشبيه؛ لأن فيها عموما من جهتين :

الجهة الأولى: وجه الشبه ، فقد يكون وجه الشبه في الصورة : القصر في كل ، فأنفاس الإنسان سريعة وقصيرة ، فكذلك حياة الإنسان ، فالصفة المشتركة بينهما هي السرعة والقصر.

وقد يكون وجه الشبه : عدم الأمان في كل ، فنفس الإنسان قد يخرج ولا يعود ، كذلك الدنيا لا أمان لها ، من حيث تقلبها بأهلها ، فأنت اليوم صحيح وغدا سقيم ، وأنت اليوم غني ، وغدا فقير، وأنت اليوم سعيد ، وغدا حزين ، وأنت اليوم في فراغ ، وغدا مشغول .

الجهة الثانية : حذف أداة التشبيه أعطى الصورة التشبيهية صفة القوة ، أي قوة الحكم على أن المشبه هو عين المشبه به .

أضف إلى ذلك أن حذف وجه الشبه والأداة في هذه الصورة ، ناسب سياق الزهد في الدنيا ، فقد زهد الإمام علي – ﷺ – في ذكر وجه الشبه والأداة ، فلا حاجة له بهما، وطرق الموضوع الذي يتناوله مباشرة، فهو تطبيق عملي للزهد.

٢- إسناد المشبه إلى ضمير المخاطب في قوله:"حياتك"، لفتة بلاغية جميلة من الإمام على – كرم الله وجهه- ، فيها تنبيه وتذكير لجميع الناس بلا استثناء ، فالجميع حياتهم أنفاس معدودة .

٣-دقة الإمام علي – ﷺ – في اختيار المشبه به بعناية فائقة ، فاختيار الأنفاس لتكون مشبها به ، للمشبه وهو " الحياة "، توحي لنا بقصر الحياة ، وعدم أمانها ، وقلة البقاء فيها ، وبالتالي فلا نأمن لها ونترك العمل للآخرة .

٤-القيد الذي أورده الإمام في صورة المشبه به " أنفاسٌ تعَدُّ"، أضفى على الصورة التشبيهية مزيدا من الدقة ، وأكد سرعة زوال الدنيا ؛ لأنه جعل الأنفاس معدودة ، وليست مطلقة ، مما أوجد عندنا الرغبة القوية والعزيمة الخالصة في

استثمار كل لحظة من لحظات الدنيا في طاعة الله – سبحانه وتعالى- ، والاستعداد للآخرة قبل فوات الأوان ، من خلال هذه الأنفاس المعدودة .

كما أن استخدام الإمام علي – كرم الله وجهه- لهذا القيد دليل واضح ، على مهارته اللغوية ، ودقته البلاغية في كشف قصر البقاء في الدنيا ؛ لأن هذا القيد له تأثير واضح في وجه الشبه. وهذا هو ما جعل المبرد يصف التشبيهات المقيدة بأنها عجيبة([٧٧]).

٥-جمع الإمام علي- كرم الله وجهه- في صورته التشبيهية بين طرفين متلازمين ، فلا توجد حياة بلا أنفاس ، وهذا يوحي بسرعة انقضاء الدنيا .

٦-إن الإمام علي – ﷺ – كان موفقا توفيقا كبيرا في إتيانه بهذه الصورة التشبيهية في سياق الزهد في الدنيا ؛ لأن التشبيه من الصور البيانية القريبة إلى الأفهام ، والسريعة إلى الأذهان ، مما يجعلها تصل إلى قلوب المتلقين جميعهم ، عالمهم وجاهلهم ، غنيهم وفقيرهم ، كبيرهم وصغيرهم .

الصورة البيانية الثانية في مقطوعة الإمام على – ﷺ- هي الصورة الكنائية المتمثلة في قوله:" فكُلمّا مضى نفسٌ انقصَت بهِ جُزءا " ،فهذا كناية عن نقصان عمر الإنسان منذ ولادته .

وهذه الكناية ترغبنا – من طرف خفي- في الزهد في الدنيا ، وعدم الاغترار بها ؛ لأنها قصيرة وسريعة الزوال ، بالإضافة إلى أنها ولدت عجوزًا شمطاءَ.

كما أن هذه الكناية تشير- بوضوح – إلى حديث رسول الله – ﷺ-، الذي يقول فيه :" أَلا إِنَّ الدُّنْيَا قَدِ ارْتَحَلَتْ مُدْبِرَةً ، وَالآخِرَةُ مُقْبِلَةً ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا

---

[٧٧] – ينظر: الكامل في اللغة والأدب – للمبرد – جـ٢- ص ٤١- مكتبة المعارف – بيروت – من دون .

بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ، وَلا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلا عَمَلٌ[٧٨]".

الصورة البيانية الثالثة ، الصورة الكنائية المتمثلة في قوله :" فتصبحُ في نفسٍ وتمشي بغيرها "، فهذا التعبير كناية عن موت الإنسان في أي لحظة.

وهذا التعبير الكنائي يعطي إشارات واضحة عن انقضاء أجل الإنسان بدون مقدمات ، مما يستوجب علينا الإكثار من الأعمال الصالحة ، استعداد لهذا الرحيل المفاجئ ، بالإضافة إلى الزهد في الدنيا ، وقصر الأمل فيها ، واتخاذها قنطرة لجنات عرضها السموات والأرض ، وهذا يسير على من يسره الله عليه .

أضف إلى ذلك أن هذه الكناية مقتبسة من الحديث الذي رواه ابن عمر:" إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ [٧٩]".

الصورة البيانية الرابعة ، الصورة الكنائية المتمثلة في قوله:" ومالكَ مِن عقلٍ تُحسَ به رزءا"، فهذه كناية عن الغفلة التي يعيش فيها الإنسان ، وعدم اتعاظه بما يدور حوله من تقلب الدنيا بأهلها ، وعدم استمرارها على حال واحدة. كما أن هذه الكناية تشير– من طرف خفي –إلى أن الموفق من وعظ بغيره ، وجعل من الدنيا طريقا إلى الآخرة .

ولعل كثرة استخدام الإمام على – ﷺ – للتصوير الكنائي ، في سياق الزهد في الدنيا – حيث استخدمه ثلاث مرات –، له دلالات متعددة ، من أهمها :

١–أن التصوير الكنائي من الأساليب البلاغية التي تحقق الإقناع ؛ لأنها تسوق المعنى بدليله ، وهذا يتفق مع حال الدنيا .

---

[٧٨] – رواه البخاري في باب الأمل وطوله – جـ٥– ص ٢٣٥٨– برقم ٣٨٣٦.

[٧٩] – الحديث رواه البخاري – في باب قول النبي – ﷺ – :" كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " – برقم ٦٤١٦.

٢-كما أن التصوير الكنائي يتفق مع طبيعية الإنسان وغفلته ، فتراه يشاهد بعينيه تذبذب الدنيا بأهلها ويتعظ وقتا قصيرا ، وسرعان ما يعود إلى غفلته وكآن شيئا لم يكن .

٣- من دلالات الكناية في هذا السياق إثبات معنى الزهد في الدنيا وتقريره وتأكيده في نفوس العباد ؛ لأن من خصائص الكناية أنك تثبت معنى من المعاني ، ولكن تثبته بغير لفظه الصريح ، وهذا يجعله أقوى وأشد ثبيتا في النفس .

٤- من دلالات الكناية الخفاء ، ماذا يريد المتحدث من التعبير ، المعنى الحقيقي أم الكنائي ؟ وهذا يتفق مع سياق الزهد في الدنيا ؛ لأنه يبعث الناس على التفكير في حالها ، وتقلبها بأهلها، مما يدعوهم إلى الزهد فيها ، واتخاذها مطية إلى النعيم الأبدي .

٥-لقد استخدم الإمام علي – ﷺ- قبل ذلك الصورة التشبيهية للتعبير عن نفس المعنى ، فكثرة استخدامه للصورة الكنائية ؛ فيه إلحاح على هذا المعنى بأكثر من صورة بيانية ، حتى تؤتي النصيحة أكلها وثمراها المرجوة ، وتعلق النصيحة في الأذهان .

ثانيا : وظف الإمام الشافعي – رحمه الله- الصورة البيانية توظيفا حسنا في سياق الزهد في الدنيا ، وكان لها دور بارز في دعوة الناس إلى الزهد فيها ، ومعرفة حقيقتها ، ولذلك أخبر الإمام الشافعي عن صنف من الناس عرفوا حقيقتها ، فابتعدوا عنها ، بقوله :

إن لله عبادا فطنا ∴ طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

فقوله :" طلقوا الدنيا "، استعارة مكنية ، حيث شبه الدنيا بامرأة ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الطلاق على سبيل الاستعارة المكنية .

وهذه الصورة الاستعارية ساهمت إسهاما كبيرا في تعريف الناس بحقيقة الدنيا ، حيث صورتها وشخصتها في صورة امرأة استحالت الحياة بينها وبين زوجها ، فأدى ذلك إلى طلاقها.

ونحن نعلم أن الرجل لا يقدم على طلاق زوجته ، إلا بعد أن يستنفذ معها جميع الوسائل التي تؤدي إلى الصلح ؛ لأن الطلاق يترتب عليه أضرارا كثيرة ، من أهمها تشتيت الأولاد ، وتفريق الأسر ، وقطع حبال المودة والصلة ، ولكن مكره أخاك لا بطل.

من أجل ذلك أراد الإمام الشافعي أن يخبرنا– من خلال هذه الصورة الاستعارية – أن هؤلاء الفطناء جربوا الدنيا ، وحاولوا التعامل معها بجميع السبل، ولكن كل ذلك باء بالفشل حتى وصل الأمر إلى طلاقها.

وتكمن بلاغة هذه الصورة الاستعارية –أيضا– في اختيار المشبه به ، وهو " المرأة "، وهذه دقة بلاغية من الإمام الشافعي ، فهناك علاقة حميمة بين المرأة والدنيا ، فالمرأة كثيرة التقلب ، كبيرة النكران لجميل زوجها ، لا أمان لها، وكل ذلك ينطبق تلقائيا على الدنيا .

أضف إلى ذلك أن كلتيهما (المرأة والدنيا)، محبوب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهما غير مستقرتين على حال ، فنجد تقلبهما المستمر من حال إلى حال ، فالمرأة لا تستقر على حال ، وهذا واضح في تعاملاتها حتى مع أقرب الناس إليها ، كذلك الدنيا سريعة التقلب من حال إلى حال.

ومما زاد من بلاغة هذه الصورة الاستعارية، ودقة ملائمتها للسياق ، التمهيد الذي سبقها "إن لله عبادا فطنا "، فالإمام الشافعي – بهذا التمهيد– أراد أن يخبرنا أن هؤلاء الذين طلقوا الدنيا من عباد الله الفطناء الذين يتصفون بالحكمة والروية في اتخاذ القرارات ، حتى لا يظن بهم أنهم طلقوها

ظلما وعدوانا – كما يفعل بعض الناس مع زوجته- ، وإنما كان طلاقها قرارا صائبا .

كما أن قوله:" إن لله عبادا فطنا "، تعريض بأولئك الذين اغتروا بملذاتها- فتكاسلوا عن طلب الآخرة- ، ولهثوا وراء شهواتها – فوقعوا في براثنها الخداعة- فاستعبدتهم ولم يستطيعوا الخروج من هذا الرِّق .

كذلك كان للصورة الكنائية – عند الإمام الشافعي – ملمح ملحوظ في كشف الستار عن لباس الدنيا البالي ، وهذا ما عبر عنه بقوله :

نظروا فيها فلما علموا ∴ أنها ليست لحي وطنا

فهذا البيت كناية عن سرعة زوالها ، وانتهاء سوقها ، وعفن بضاعتها ، فكيف يفرط الإنسان العاقل في نعيم أبدي وخلود سرمدي بدنيا هذه بعض صفاتها؟! فهيا بنا نُقْبِلُ على طاعة مولانا ، مطلقين لدنيانا ، راجين رحمة ربنا ، خائفين من نار بارئنا ، متمثلين أبيات الشافعي :

إن لله عبادا فطنا ∴ طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ∴ أنها ليست للحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا ∴ صالح الأعمال فيها سفنا

فقوله :" جعلوها لجة "، صورة تشبيهية بليغة ، حيث شبهوا الدنيا بلجة ، ووجه الشبه : الغرق في كل .

وتكمن بلاغة هذه الصورة التشبيهية في تصويرها حقيقة الدنيا ، فالدنيا ما هي إلا لجة ، يغرق فيها كثير من الناس ، لعدم قدرتهم علي السباحة ، وعدم امتلاكهم النفس الطويل الذي يساعدهم على خوض هذه اللجة.

وإذا توقفنا عند أجزاء هذه الصورة التشبيهية، يتبين لنا بوضوح، دورها البارز في كشف عمق الدنيا، فتأمل المشبه "جعلوها"، بصيغة الجمع ، وكأن جميع الفطناء تنبهوا إلى هذا الأمر، والضمير عائد إلى الدنيا.

ثم يأتي دور المشبه به " لجة " ، وهذا اللفظ فيه الكثير من صفات الدنيا.

ولم يكتف الإمام الشافعي بهذه الصورة ، بل أورد لنا في الشطر الثاني من البيت صورة تشبيهية أخرى – كانت بمثابة الحل لما ورد في الصورة الأولى، أي إذا كانت الدنيا لجة ، فماذا نفعل فيها –، فقال:" واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا "، حيث شبه الأعمال الصالحة بالسفن، ووجه الشبه : النجاة في كل.

وهذه الصورة التشبيهية تؤكد أنه لا نجاة من هذه الدنيا إلا بكثرة الأعمال الصالحة التي تنجي العبد يوم القيامة من المهالك ، كما ينجو الناس من الغرق في البحر بركوبهم السفن .

وتلك الصورتان التشبيهتان كان لهما دور ملحوظ في سياق الزهد في الدنيا ، فالصورة الأولى شبهت لنا الدنيا بلجة ، وجاءت الصورة الأخرى ؛ لتبين لنا سبل النجاة من هذه اللجة .

أضف إلى ذلك دقة الإمام الشافعي ، ومهارته اللغوية في إتيانه بصورتين تشبيهتين في بيت واحد ، ويخدمان غرضا واحدا ، وهذا ما أشاد به علماء البلاغة ، وتحدثنا عنه قبل ذلك مما يغني عن إعادته .

وبذلك يتبين لنا أن الإمام الشافعي اعتمد على جميع عناصر الصورة البيانية في كشف حقيقة الدنيا للناس ، حيث اشتملت مقطوعته الشعرية على صورة استعارية ، وصورة كنائية ، وصورتين تشبيهتين ، تآزرتا وتعاضدتا معا في كشف النقاب عن وجه الدنيا المتلون ، وإزالة الستار عن غطائها البالي ؛ ليتنبه الجميع ، ويسارع إلى طلاقها طلاقا بائنا لا رجعة فيه ، وألا ينخدع بتوددها الزائف ، وكلامها المعسول ، ولباسها البراق ، وعيونها الجذابة ، فهذا صنيعها

مع البشر جميعا ؛ حتى توقعهم في براثنها ، ولكن العاقل من جعلها في يده ، ومنعها من الوصول إلى قلبه ، واتخذها مزرعة للآخرة.

المبحث الخامس
الصورة البيانية في سياق حقيقة المال

من المعلوم – بداهة- أن حب المال غريزة في الإنسان تجري في عروقه وتسري في دمه ، ولذلك نجد صنفا من الناس – وهو كثير- يقصر في طاعة الله – سبحانه وتعالى- بسبب انشغاله بالمال والسعي في جمعه ؛ لأنه يعتقد أن كثرة المال سبب سعادته، ونسي قول القائل:

وَلَستُ أَرى السَعادَةَ جَمعَ مالٍ ∴ وَلكِنَّ التَقِيَّ هُوَ السَعيدُ([٨٠])

وتناسى – وهو يعلم – قول ربنا – سبحانه وتعالى -:" أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ([٨١])".

وأخذ يسعى وراء جمع المال ، وغفل عن قول نبينا – ﷺ- :" وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ([٨٢])".

---

[٨٠] – البيت للحطيئة وهو في ديوانه –ص ٤٧- اعتنى به وشرحه / حمدُو طمّاس – دار المعرفة – بيروت – لبنان – من دون.

[٨١] – الآيتان ٥٥، ٥٦ من سورة المؤمنون .

[٨٢] – أورده مسلم في كتاب الزهد والرقائق – برقم ٤٨٣- وأخرجه النسائي والترمذي والحاكم ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وها هما الإمامان يبينان حقيقة المال ، فيقول الإمام علي – رضي الله عنه وأرضاه– :

وكم ساع لِيثْـريَ لم يَنَلْهُ ∴ وآخرُ ما سعى جَمَعَ الثراءَ[٨٣]

وساعٍ يجمعُ الأموالَ جمْعاً ∴ لِيُورثَها أعاديهِ شقاءَ

وما سيانِ ذوخُبْرٍ بصيرٌ ∴ وآخرُ جاهلٌ ليسا سواءَ[٨٤]

ومن يستعتبِ الحَدَثان يوماً ∴ يكنْ ذاك العتابُ له عَناءَ[٨٥]

ويُزري بالفَتى الإعدام حتى ∴ متى يُصِب المقالَ يُقَلْ أساءَ [٨٦]

ويقول الإمام الشافعي – رحمه الله – :

يا ناظري بالكسوة البالية ∴ تحت ثيابي همم عالية

وإنما الناسُ بآدابهم ∴ والمالُ في كفهمُ عارية[٨٧]

الموازنة بين الصور عند الإمامين من خلال السياق:

أولا : يبدأ الإمام على – كرم الله وجهه– مقطوعته الشعرية بالحديث عن أولئك الذين يواصلون الليل بالنهار في سبيل جمع المال ؛ ليصنفوا ضمن قائمة الأغنياء، ولم يتنبهوا إلى أن أرزاقهم كتبت وهم في بطون أمهاتهم ، ولم يزدها سعيهم – مع أن السعي الحلال مطلوب– كثرة ، ولم ينقصها قلة السعي قلة ، فيقول :

وكم ساع لِيثْـريَ لم يَنَلْهُ ∴ وآخرُ ما سعى جَمَعَ الثراءَ

---

[٨٣] – الثراء : الغنى والمال .
[٨٤] – ذو خبر بضم الحاء : ذو تجربة .
[٨٥] – الحدثان : أحداث الزمان .
[٨٦] – ديوان الإمام علي – ﷺ – ص ٢٥.
[٨٧] – ديوان الإمام الشافعي – ص ١٣٠.

فقوله :" وكم ساع لِيثْريَ لم يَنَلْهُ "، كناية عن اللهث وراء جمع المال بدون طائل .

وهذه الصورة الكنائية تصور لنا أولئك الذين يبذلون أقصى جهدهم في سبيل الوصول إلى الثراء – وهذا محمود لو أنهم يسعون وراء الآخرة نصف هذا السعي- ، ولكنهم لا يتحصلون إلا على ما كتب لهم.

كما أن هذه الصورة الكنائية تهمس في أذن كل مسلم ، وتذكره بحديث رسول الله – ﷺ – :" مِنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ شَتَّتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَهُ ، وَنَزَعَ الْغِنَى مِنْ قَلْبِهِ ، وَجَعَلَ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالآخِرَةُ نِيَّتُهُ وَأَكْبَرُ هَمِّهِ ، جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ ، وَنَزَعَ الْفَقْرَ مِنْ قَلْبِهِ ، وَجَعَلَ الْغِنَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ[٨٨]) ".

كما أن قوله السابق:" وكم ساع لِيثْريَ لم يَنَلْهُ " ، يشتمل- أيضا- على صورة بيانية أخرى، وهي المجاز المرسل في قوله :"لِيثْريَ"، وعلاقته المسببية، حيث عبر بالمسبب وهو الثراء ، وأراد السبب وهو جمع المال ؛ لأن الذي يسعى يجمع المال ، والثراء مترتب على جمعه .

---

[٨٨] – قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ٢ / ٦٧٠ : أخرجه الترمذي (٢ / ٧٦) عن الربيع بن صبيح عن يزيد بن أبان و هو الرقاشي عن أنس مرفوعا . وسكت عنه الترمذي ، و هو إسناد ضعيف لكنه حسن في المتابعات ، قال المنذري (٤ / ٨٢) : " و رواه الترمذي عن يزيد الرقاشي عنه و قد وثق و لا بأس به في المتابعات " . قلت : و ورد بلفظ أتم منه و هو : " من كانت الدنيا همته و سدمه و لها شخص و إياها ينوي ، جعل الله الفقر بين عينيه و شتت عليه ضيعته و لم يأته منها إلا ما كتب له منها و من كانت الآخرة همته و سدمه و لها شخص و إياها ينوي ، جعل الله عز وجل الغنى في قلبه و جمع عليه ضيعته و أتته الدنيا وهي صاغرة " المنذري – جـ٣- ص ٩.

وتكمن بلاغة هذا المجاز في تصوير طموحات وأحلام هؤلاء الذين يسعون وراء جمع المال ، من أجل أن يحصلوا على لقب الثراء ، فضلا عما توحي به هذه الكلمة، من كثرة المال ، والغنى ، والرفاهية ....

وفي المقابل أتى بصورة كنائية أخرى في الشطر الثاني من البيت " وآخرُ ما سعى جَمَعَ الثراءَ"، فهذا التعبير كناية عن كثرة ماله بدون جهد زائد ، وبأقل سعي ممكن.

وفيه دلالة أخرى على أن الإنسان يأخذ بأسباب الرزق فقط ، أما اكتساب الرزق نفسه فهو من الله – سبحانه وتعالى- .

والبيت كله كناية عن تصاريف القدر بين البشر بالغنى والفقر.

وإتيان الإمام علي – ﷺ – بثلاث صور كنائية في بيت واحد وسياق واحد ، دقة بلاغية عالية منه ، حيث عرض الصور أمام القارئ الكريم ؛ ليختار- بعقله الراجح – ما يشاء ، ويؤثر- بإيمانه- ما يعن له ، الصورة الأولى : رجل يواصل الليل بالنهار في سبيل جمع المال ، وفي النهاية لم يتحصل إلا على ما قسمه الله – سبحانه وتعالى – له؛ لأن هذه أرازق مقسومة منذ الأزل، والصورة الثانية رجل يسعي السعى المطلوب فقط ، ويتحصل على كثير من الأموال ؛ لأنه يعلم يقينا بأن الأرازق بيد الله- سبحانه وتعالى-، وخزائنه ملائ يهبها لمن يشاء من عباده ، ويمنعها عن من يشاء ؛ لحكمة يعلمها- سبحانه وتعالى -:" وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ([٨٩])".والصورة الثالثة صورة رجل يؤمن بتصاريف القدر بين العباد.

ويتكرر المجاز المرسل مرة أخرى في الشطر الثاني من البيت " وآخرُ ما سعى جَمَعَ الثراءَ "، وعلاقته المسببية ، حيث عبر بالمسبب وهو الثراء ، وأراد السبب

---

[٨٩] – الآية ٢٧ من سورة الشورى .

وهو المال ، وتكرار المجاز تأكيد وتحقيق على أن الأرزاق بيد الله – سبحانه وتعالى– يعطيها لمن يشاء من عباده ، ولا ترتبط بكثرة السعي ولا قلته .

كما أن الصورة البيانية المركبة عند الإمام على – ﷺ – (حيث جمع بين الصورة الكنائية والمجاز المرسل في الشطرتين من البيت) ، تتناسب مع سياق صفة المال ، لأن المال ينظر إليه من جهات متعددة ، فجاءت الصورة المركبة تلبية لتلك الجهات ، بالإضافة إلى ما فيها من ترغيب وترهيب يتناسب مع طبيعة المال ، ترغيب في عدم التقصير في طاعة الله– سبحانه وتعالى– ، لأن الأرزاق بيده وحده – سبحانه وتعالى– ، وترهيب لأولئك الذين يلهثون وراء الثراء ، ولا ينالون منه إلا ما كتب لهم.

ويواصل الإمام علي – ﷺ– الحديث عن أولئك الذين ليس لديهم شغل إلا جمع الأموال ، فيقول :

وساعٍ يجمعُ الأموالَ جمْعاً ∴ لِيُورثَها أعاديهِ شقاءَ

فقوله:" يجمعُ الأموالَ جمْعاً "، مجاز مرسل علاقته الكلية ، حيث عبر بالكل وهو جمع الأموال كلها – وهذا أمر مستحيل – ، وأراد الجزء ، وهو جمع قدر من المال.

وهذا المجاز يصور لنا مدى جشع وطمع هؤلاء الذين يسعون لجمع الأموال، ويستنفذون في سبيل ذلك جميع السبل، حتى وإن كان في بعضها شبهة، إلا أن حبهم وشغفهم في الثراء ، ينسيهم تلك الشبهات.

ويعضد الصورة المجازية ويقويها المفعول المطلق في قوله :" جمعا "، مما يعني أن هذا الساعي يجمع الأموال ويحتفظ بها، حتى يصل إلى طموحه وهو الثراء في أقرب وقت ممكن ، وهذا توكيد لفكرته؛ لأن المفعول المطلق مؤكد لفعله.

وقوله في الشطر الثاني :" لِيُورِثَها أعاديهِ" ، صورة استعارية تهكمية ، لأن الإنسان يجمع المال عادة ليورثه لأحبابه وذريته ، فاستعار الأعادي لمن يحصلون على المال على غير رغبة صاحبه ، في حين أنه جمعه لمن يحبهم ، فشبه جمع المال لمن يحب بجمعه لمن يعاديه ، على سبيل التهكم .

وهذه الصورة التهكمية توحي بالندم والحزن لأصحاب الأموال ، فقد يشقون من أجل جمع المال لمحبيهم ، ولكن إرادة خالقهم يورثه لمن يعاديهم ، بالإضافة أن هذه الصورة تستنطقهم ، وتقول لهم : مهلا في جمع المال ؟!

ثم يلقي الإمام علي – ﷺ– اللوم على الذين يستعتبون على الزمان، فيقول:

ومن يستعتبِ الحَدَثان يومًا ∴ يكنْ ذاك العتابُ له عَناءَ

فقوله :" يستعتبِ الحَدَثان "، صورة استعارية مكنية ، حيث شبه الزمان بإنسان، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه.

وهذه الصورة الاستعارية تشخص أحداث الزمان في صورة رجل يعتب عليه ؛ لأنه يعطي الأموال لمن لا يستحق ، ويمنعها عن مستحقيها، ومن يفعل ذلك فسوف يعاني كثيرا " يكنْ ذاك العتابُ له عَناءَ "، لأنه لا يجوز أن يعترض أحد على ما يحدث من أمر الله – سبحانه وتعالى–، فكل شيء عنده بمقدار.

والبيت كله كناية عن خطأ من يلوم أحداث الزمان ؛ لأنه لن يرجع منها بطائل ، وهذه الصورة الكنائية توحي بالاستسلام والرضا بكل ما قدره الله – سبحانه وتعالى– للعبد من كثرة الأموال أو قلتها .

كما أن هذه الصورة الكنائية تشير إلى قول الله – تعالى– :" أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(٩٠)".

---

٩٠ – الآية ٣٢من سورة الزخرف .

ويبين الإمام – ﷺ– بأن الفقر له تأثير سلبي على الإنسان ، فيقول:

ويُـــزري بـــالفَتى الإعـــدام حتـــى ∴ متـــى يُصِـــب المقـــالَ يُقَـــلْ أســـاءَ

فقوله:" حتى متى يُصِب المقالَ يُقَلْ أساءَ "، صورة كنائية رائعة ، فهي كناية عن إزدراء الفقير .

وهذه الصورة الكنائية تصور لنا مدى الذل والضعف والهوان الـذي يلاقيـه الفقير في مجتمعات لا تعترف إلا بأصحاب الأموال ، ولا تجالس إلا أهل الثـراء ، ولا تنصت إلا للأغنياء .

فلنتأمل دقته في اختيار ألفاظ الصورة الكنائية " يصب المقال "، مما يوحي ويؤكد أن الفقير صادق في كلامه ومع ذلك " يُقَلْ أساءَ "، لا أحد يلتفت إلى كلامه، وهذا يذكرنا بقول القائل :

إن الغَنِـــيَّ إذا تكلـــم كاذِبًـــا ∴ قـــالوا صَـــدقتَ ومـــا نَطَقـــتَ مُحـــالا

وإذا الفقـــيرُ أصـــاب قـــالوا لم يُصِـــب ∴ وكـــذبتَ يـــا هـــذا وقُلـــتَ ضـــلالا

إن الـــــدراهمَ في المـــــواطنِ كلِّهـــــا ∴ تكســـو الرجـــالَ مهابـــةً وجـــلالا

فهـــي اللســـانُ لمـــن أراد فصـــاحةً ∴ وهـــي الســـلاحُ لمـــن أراد قتـــالا ([٩١])

ثانيا :وظف الإمام الشافعي الصورة البيانية توظيفا رائعا في سـياق صـفة المال، وجعلها تؤدي دورا ملموسا في هذا السياق ، حيث بدأ مقطوعته الشـعرية المكونة من بيتين فقط، بقوله:

يـــا نـــاظري بالكســـوة الباليـــة ∴ تحـــت ثيـــابي همـــم عاليـــة

[٩١] – الأبيات في معجم الأدباء – لياقوت الحموي– جـ٢– ٤٢٧– وجواهر الأدب – أحمد الهاشمي– جـ٢– ٦٩– وغرر الخصائص الواضـحة – الوطـواط – جـ١– ١٧٣.

فقوله:" يا ناظري بالكسوة البالية " كناية عن حالة الفقر الذي يعيش فيها الشافعي، وهذه الصورة الكنائية تصور لنا حالته المادية ، حيث يرتدي ثوبا باليا ، لا يليق بعالم مثله .

ولقد أجاد الإمام الشافعي في اختيار ألفاظ الصورة الكناية " يا ناظري بالكسوة البالية"، حيث اختار اللباس ليعبر به عن حالته المادية ؛ لأن اللباس من الأشياء الظاهرة للناس جميعا ، بخلاف المأكل والمشرب ، والمبيت وغير ذلك من الأشياء التي تتأثر بقلة المال .

أضف إلى ذلك : أن اختياره للكسوة البالية ، فيه تنبيه لأصحاب الأموال أن يرتدوا أحسن الثياب ، وهذا ما أشار إليه ديننا الحنيف في قول رسولنا الكريم – ﷺ –:" إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَيُبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ ([٩٢]) ".

كما نلمح من الصورة الكنائية بعض الحزن والأسى للإمام الشافعي ، ولذلك نراه في الشطر الثاني من البيت ، يقول :" تحت ثيابي همم عالية "، وهذه صورة كنائية أخرى ، تعبر عن اعتزازه بنفسه وهمته العالية ، وتوحي بعفة نفسه في جمع المال عن طريق المذلة ، مهما كان لباسه ؛ لأنه يملك نفسا ترقص فوق الغمام ، لا تقبل الذل ، ولا ترضى بالضيم؛ لأنه يؤمن بأن المقياس في التفاضل بين الناس ليست هي الأموال:

وإنما الناسُ بآدابهم ∴ والمالُ في كفهمُ عارية

التفاضل بين الناس بالأدب والأخلاق الرفيعة " والمالُ في كفهمُ عارية"، وهذه صورة تشبيهية بليغة ، حيث شبه المال بالعارية ، ووجه الشبه : الاسترداد وعدم البقاء في كل.

وهذه الصورة التشبيهية أغنتنا عن كثير من الصور الأخرى؛ لأنها:

---

[٩٢] – أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان"– جـ٥– ص ١٦٣– رقم ٦٢٠١.

١- جاءت محذوفة الوجه والأداة ، وهذا فيه ما فيه من البلاغة والإيجاز.

٢- القيد الذي ورد في صورة المشبه " في كفهم "، أضفى عليها مزيدا من الدقة في ترسيخ حقيقة المال؛ لأن هذا القيد :

أ- ينبه الإنسان أن يجعل ماله في كفه، ويحذر أن يقترب المال من قلبه؛ لأن المال عندما يتمكن من القلب، يترتب على ذلك سلبيات كثيرة، تضر المرء في دينه وآخرته.

ب-يوحي بأن المال يذهب ويأتي، اليوم في كفك، وغدا في كف غيرك ، والأموال دول بين الناس ، فمن أعطي المال فلا يغتر ، ومن حرم فلا يحزن ، وفي كلا الأمرين ابتلاء .

ج- صيغة الجمع الذي أتى عليها القيد" في كفهم " تحذر وتنذر الجميع بلا استثناء ، بأن المال في كفهم عارية ، يجوز استردادها في أي وقت وبدون سابق إنذار .

٣-دقة الإمام الشافعي في اختيار صورة المشبه به " عارية "، فهذه الصورة توحي بأن مراكب المال لا تستقر في بحور أناس دون آخرين ، ولكنها سوف تعبر جميع الشواطئ ، والعاقل من قدم من ماله لآخرته ، واتخذه سبيلا في الوصول إلى رضا الله – سبحانه وتعالى-.

المبحث السادس
خصائص الصورة البيانية عند الإمامين

أولا : غلبة النزعة الدينية على شعر الإمامين ، وهذا انعكاس طبيعي لشخصيتهما ، فالأول صحابي جليل ، ورابع الخلفاء الراشدين ، والثاني صاحب مذهب فقه معروف ، ومتميز بين أقرانه.

ثانيا : وظف الإمامان الصورة البيانية توظيفا حسنا في بث الأخلاق الفاضلة بين الناس ، وكان لها دور ملموس في الوصول إلى الهدف الذي يسعى إليه كلاهما .

بالإضافة إلى تأثيرها المباشر لقلب المتلقي ، مما ترتب عليه اقتناعه بكثير من الأخلاق التي دعا إليها الإمامان ، تأمل معي تلك الصورة التشبيهية الشامخة – والصور كثيرة لو استعرضناها- التي عبر فيها الإمام علي – ﷺ – عن صموده أمام الأحداث ، ومدى تأثيرها على قلوبنا :

إن ألمت ملمة بي فإني ∴ في الملمات صخرة صماءُ

أضف إلى ذلك تلك الصورة التشبيهية الرائعة التي حذرنا فيها الإمام الشافعي من طلب السماحة من البخيل – والصور كثيرة – ، وكم كان لها من تأثير على المتلقي :

وَلاَ تَرْجُ السَّمَاحَةَ مِنْ بَخِيلٍ ∴ فَمَا فِي النَّارِ لِلظَّمْآنِ مَاءُ

ثالثا : اتسمت الصورة البيانية عند الإمامين بالجدة والابتكار ، وأساليب الابتكار عندهما كثيرة :

١- فقد يكون الابتكار عندهما في إيجاد بعض الصور البيانية اللاتي لم يسبقا إليها، كما رأينا في قول الإمام علي – ﷺ – في سياق مخاطبة السفيه :

وذو سفهٍ يواجهني بجهلٍ ∴ وأكره أن أكون له مجيبا

يزيـــد ســـفاهةً وأزيـــد حلمًـــا ∴ كعُـــودٍ زاد بـــالإحراق طيبـــا

فهذه صورة تشبيهية رائعة ، أحسب أن الإمام علي – ﷺ – لـم يسـبق إليها ، ولم تسمع من أحد قبله .

كذلك تلك الصورة التشبيهية الأخرى التي عبر فيها الإمام علي – كرم الله وجهه – عن قصر مدة البقاء في الدنيا ، فقال:

حَياتُـــكَ أنفـــاسٌ تعَـــدُّ فكُلّمـــا ∴ مضـــى نفـــسٌ انقصَـــت بـــهِ جُـــزءا

فهذه صورة مبتكرة – فيما أعلم – من الإمام علي – ﷺ – عبرت تعبيرا بليغا عن قصر البقاء في الدنيا .

ومن الصور البيانية الجديدة عند الإمام الشافعي – رحمه الله–، قوله:

وَلاَ تَـــرْجُ السَّـــمَاحَةَ مِـــنْ بَخِيـــلٍ ∴ فَمَـــا فِـــي النَّـــارِ لِلظَّمْـــآنِ مَـــاءُ

فمما لا شك فيه أن الإمام الشافعي أبدع في هذه الصورة التشـبيهية ؛ لأنهـا بمثابة سهم نافذ للبخلاء ؛ لأنها تكشف بوضوح عدم إرجاء الخير مـنهم مهمـا حاولوا التجمل والتزين بلباس الخير.

أضف إلى ذلك أنه أقام الدليل والبرهان على الحكم الصادر ، فعندما نهانا عن طلب السماحة من البخيل ، أقام دليلا قاطعا وبرهانا سـاطعا علـى كلامـه ، بقوله : فَمَا فِي النَّارِ لِلظَّمْآنِ مَاءُ .

ومن الصور الاستعارية التي توصف بالجدة والابتكار عند الإمام الشـافعي ، قوله :

سهـــري لتنقيـــح العلـــوم ألـــذ لـــي ∴ مـــن وصـــل غانيـــة وطيـــب عنـــاق

فهذه صورة لم تسمع – فيما أعلم – من أحد قبله ، حيث أدت الغرض المنوط بها على أكمل وجه ، وعبرت تعبيرا دقيقا عن مدى حب الشافعي وعشقه للعلم ، حتى صوره في صورة حسية تذاق بالفم .

٢- وقد يكون الابتكار عندهما في الأسلوب ، فتأمل أسلوب الإمام علي – ﷺ – في قوله:

إن ألمـــت ملمـــة بـــي فـــإني ∴ في الملمـــات صـــخرة صـــماءُ

فلنتأمل أسلوب القيد الذي أورده الإمام علي – ﷺ– في صورة المشبه ، وهو الجار والمجرور في قوله :" في الملمات "، حيث أضفى عليها نوعا من الجدة ، وكأن الإمام يؤكد في نفسه رقة القلب ، ولين المشاعر ، ورهافة الحس ، لأنه أراد أن يقول : إني في الملمات فقط كالصخرة الصماء ، ولكن ليس هذا طبع أصيل فيَّ ، لأن هذا يتنافى مع طبيعته الدينية الرقيقة ، ومشاعره الفياضة ، وعواطفه الجياشة التي تتأثر بالأحداث التي تدور حوله، كل ذلك أومئ إليه من خلال القيد.

كذلك تأمل أسلوب الالتفات الجميل الذي اشتملت عليه الصورة ، فسياق المقطوعة الشعرية هو أن الإمام علي كان يتحدث بضمير الغائب،انظر إلى قوله:

والفتـــى الحـــاذق الأديـــب إذا مـــا ∴ خَانَـــهُ الـــدَّهْرُ لَـــمْ يَخُنْـــهُ عَـــزَاْءُ

ولكنه عندما صاغ الصورة التشبيهية عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم،فقال:

إن ألمـــت ملمـــة بـــي فـــإني ∴ في الملمـــات صـــخرة صـــماءُ

وتلك لمسة بلاغية رائعة من الإمام علي،ألبست الصورة ثوب الجدة والابتكار.

ومن الصور الجديدة عند الإمام الشافعي – من حيث الأسلوب– قوله:

وألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لدفهـــا ∴ نقـــري لألقـــي الـــرمل عـــن أوراقـــي

تأمل التقديم والتأخير في الأسلوب، الذي أضفى على الصورة مزيدا من الجدة والابتكار، فلو أن الشافعي سار على نفس المنهج في الأبيات السابقة، لقال:

ونقـــري لألقـــي الرمـــل عـــن أوراقـــي ∴ ألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لـــدفها

ولكن الشافعي بهذا التقديم ألبس الصورة ثوب الجدة والابتكار.

ومن الصور الجديدة عند الإمام الشافعي – من حيث الأسلوب أيضا – قوله:

وصـــرير أقلامـــي علـــى صـــفحاتها ∴ أحلـــى مـــن الدّوكـــاء والعشـــاق

فقوله:"وصرير أقلامي"، لم يرد عند الشعراء المتقدمين على الشـافعي فيمـا أعلم .

٣- وقد يكون الابتكار عندهما في وصفهما للصورة البيانية وصـفا دقيقـا ، يدخلها في ثوب الابتكار ، فتأمل قول الإمام علي – كرم الله وجهه–:

إن ألمـــت ملمـــة بـــي فـــإني ∴ في الملمـــات صـــخرة صـــماءُ

فتأمل كيف وصف المشبه به – وهو الصخرة –، بقولـه " صـماء "، وهـذا الوصف ألبس الصورة ثوب الابتكار ؛ لأنه حقق مراد الإمـام علـى مـن وراء الصورة التشبيهية ، وهو الصمود والعزيمة والقوة في مواجهة الأحداث ؛ كما أن هذا الوصف له دلالة واضحة في وجه الشبه ، لأن الصخرة المجوفة لا تثبت في مهب الرياح ، وتقلب أحوال الطبيعة ، بخلاف الصخرة الصماء التي لـيس بهـا تجويف .

وخذ مثلا وصف الإمام الشافعي للصورة الاستعارية التي عبر فيها عـن فرحه وسروره بالعلم ، فقال :

وتمـــايلي طربـــا لحـــل عويصـــة ∴ في الـــدرس أشـــهى مـــن مدامـــة ســـاق

كيف وصفها وصفا دقيقا ، جعل حروف الصورة الاستعارية تتـراقص طربـا تضامنا مع طربه وسروره.

٤–وقد يكون الابتكار عندهما في استخدامهما لألفاظ الصورة البيانيـة اسـتخداما رائعا ، يدخلها في ثوب الابتكار، فلنتأمل استخدام الإمام الشافعي لألفاظ الصورتين الكنايتين في قوله:

وأبيـــت سهـــران الـــدجى وتبيتـــه ∴ نومـــا وتبغـــي بعـــد ذاك لحـــاقي ؟

كيف استخدمهما استخداما موفقا أدخلهما في ثوب الابتكار ، وعبر بهما عـن جهده ومشقته في سبيل طلب العلم ، وعرضَّ بهؤلاء الكسـالى الـذين يريـدون اللحاق به .

رابعا :اتسمت الصورة البيانية عند الإمامين بالواقعية ، فأغلب الصور عندهما مستمدة من الواقع الذي عاش فيه كل منهما .

وهذا شيء بدهي ؛ لأن الأول منهما صحابي جليل – ﷺ –، والثاني صـاحب مذهب فقه معروف – رحمه الله– ، ولذلك ما كانا ليجرؤا على الخيال والمبالغـة غير المعقولة ، لأن ذلك يتنافى مع شخصيتهما الدينية ، وغير ملائم لعصر كـل منهما (عصر الصحابة – رضوان الله عليهم – عصر السلف الصالح – رحمهـم الله جميعا –).

فالصورة التشبيهية في قول الإمام علي – ﷺ –:

إن ألمـــت ملمـــة بـــي فـــإني ∴ في الملمـــات صـــخرة صـــماءُ

مستمدة من البيئة التي عاش فيها ،لأن الصخور مظهر من المظاهر المتكررة أمام أعينهم ليل نهار.

كذلك قوله في مخاطبة السفيه :

وذو ســـفهٍ يـــواجهني بجهـــلٍ ∴ وأكـــره أن أكـــون لـــه مجيبـــا

يزيـــد ســـفاهةً وأزيـــد حلمًـــا ∴ كعُـــودٍ زاد بـــالإحراق طيبـــا

فصورة الطيب مظهر معروف من مظاهر البيئة العربية حتى يومنا هذا ، وكل ذلك كان له تأثير إيجابي على المتلقي .

كذلك قول الإمام الشافعي ، في وصف الدنيا :

جـــعلوها لجـــة واتخـــذوا ∴ صـــالح الأعمـــال فيهـــا ســـفنا

فالبحار والسفن صور مستقاة من البيئة التي عاش فيها .

كذلك الصورة الاستعارية – والصور كثيرة –في قوله:

وألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لدفهـــا ∴ نقـــري لألقـــي الـــرمل عـــن أوراقـــي

فصورة نقر الفتاة لدفها من الصور التي يشاهدها الناس كثيرا.

كذلك قوله :

وَلاَ تَـــرْجُ السَّـــمَاحَةَ مِـــنْ بَخِيـــلٍ ∴ فَمَـــا فِـــي النَّـــارِ لِلظَّمْـــآنِ مَـــاءُ

فصورة النار أيضا من مظاهر البيئة العربية .

خامسا : من مظاهر الصورة البيانية عند الإمامين ، التركيب ، حيث كانت الألفاظ – غالبا– تحمل أكثر من صورة بيانية في وقت واحد ، أو يكون البيت الواحد يحمل أكثر من صورة بيانية ، مما انعكس ذلك بالإيجاب على المتلقي ؛ لأنه لديه أكثر من مؤثر ، بالإضافة إلي تأكيد بلاغة الإمامين المسلم بها عند الجميع .

أضف إلى ذلك أن تركيب الصورة البيانية عندهما يدل على ثراء وعمق المعاني ، مما يحتاج إليه الشاعر ؛ ليصل إلى مراده ، لأن المعاني التي تدور بداخله لا تستوعبها صورة واحدة ، فيعمد إلى تصويرها في أكثر من صورة.

كما أن تركيب الصورة عندهما يعضد ويقوي ما ذهبنا إليه في المقدمة ، بأن الطريقة المثلى في المنهج ، دراسة الصورة البيانية كاملة دون الفصل بين أجزائها ؛ لأن الفصل سيذهب ببلاغتها ، فضلا عن التكرار المترتب على ذلك .

وإليك بعض الصور التي اشتملت على التركيب :

ففي قول الإمام علي – ﷺ –:

و الفتـــى الحـــاذق الأديـــب إذا مـــا ∴ خَانَـــهُ الـــدَّهْرُ لَـــمْ يَخُنْـــهُ عَـــزَاْءُ

فقوله :" لَمْ يَخُنْهُ عَزَاْءُ " ، يمكن أن يكون التعبير من قبيل الاستعارة المكنية ، ويمكن أن يكون من قبيل الاستعارة التصريحية.

وقوله:

فَقُمْ بعلمٍ ولا تطلبْ به بدلاً ∴ فالناسُ موتى وأهلُ العلم أحياءُ

اشتمل على ثلاث صورة بيانية ، الاستعارة في قوله:" فَقُمْ بعلمٍ "، والصورة التشبيهية في قوله :" فالناسُ موتى "، والصورة الثالثة" وأهلُ العلم أحياءُ".

وقوله:

فتصبحُ في نفسٍ وتمشي بغيرها ∴ ومالكَ مِن عقلٍ تُحسَ به رزءا

حيث اشتمل على صورتين كنايتين .

وقوله:

وكم ساع لِيثْرِيَ لم يَنَلْهُ ∴ وآخرُ ما سعى جَمَعَ الثراءَ

حيث اشتمل على ثلاث صور ، الصورة الكنائية في الشطر الأول ، والصورة الكنائية الثانية في الشطر الثاني ، وصورة المجاز المرسل في قوله :" لِيثْرِيَ".

ومن شعر الإمام الشافعي قوله :

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ ∴ وَطِبْ نَفْساً إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ

حيث اشتمل على صورتين استعارتين ، واحدة في الشطر الأول ، والأخرى في الشطر الثاني .

وقوله:

تستر بالسخاء فكُلُّ عَيْبٍ ∴ يغطيه كما قيل السَّخَاءُ

ففي البيت صورة استعارية مكنية ، وقد تكون تصريحية في الفعل " يغطي ".

وقوله:

وَمَنْ نَزَلتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا ∴ فَلاَ أَرْضٌ تَقِيهِ وَلاَ سَمَاءُ

حيث اشتمل على صورة مكنية في الشطر الأول ، وصورة كنائية في الشطر الثاني .

وقوله:

وَأَرْضُ اللَّـــــهِ وَاسِـــــعَةٌ وَلكِـــــنْ ∴ إِذَا نَـــــزَلَ القَضَـــــا ضَـــــاقَ الفَضَـــــاءُ

فالشطر الثاني من البيت اشتمل على صورة كنائية ، وصورة المجاز المرسل.

وقوله:

سهـــري لتنقيـــح العلـــوم ألـــذ لـــي ∴ مـــن وصـــل غانيـــة وطيـــب عنـــاق

في البيت أربع صور بيانية ، صورة استعارية مكنية ، وصـورة اسـتعارية تصريحية ، وصورة المجاز المرسل ، وصورة كنائية .

وقوله:

وصـــرير أقلامـــي علـــى صـــفحاتها ∴ أحلـــى مـــن الدّوكـــاء والعشـــاق

في البيت ثلاث صور بيانية ، صورة استعارية مكنيـة ، وصـورة كنائيـة ، وصورة المجاز المرسل .

وقوله:

وألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لدفهـــا ∴ نقـــري لألقـــي الـــرمل عـــن أوراقـــي

حيث اشتمل على ثلاث صور ، صورة مكنية ، وصورة تصريحية ، وصـورة كنائية .

وقوله : وتمايلي طربـا لحل عويصـة في الدرس أشهى من مدامة ساق اشتمل على صورتين ، صورة مكنية ، وصورة كنائية .

وقوله:

وأبيـــت سهـــران الـــدجى وتبيتـــه ∴ نومـــا وتبغـــي بعـــد ذاك لحـــاقي؟

اشتمل على صورتين كنايتين ، واحدة في الشطر الأول ، والأخرى في الشطر الثاني .

ويلاحظ كثرة الصور المركبة عند الإمام الشافعي ؛ لأن هناك صورا مركبة أخرى ، آثرنا عدم ذكرها خشية الإطالة .

سادسا :اتسمت الصورة البيانية عند الإمامين – من خلال الدراسة – بالدعوة إلى الأخلاق العامة ، وليست الخاصة ، مما ترتب عليه نفع الجميع بالصورة البيانية ، وتأثيرها على جميع طبقات الناس .

ففي المبحث الأول يدعونا الإمامان – من خلال الصورة البيانية – إلى الصمود في مواجهة الأحداث ، والرضا بالقضاء ، وهذا مما لا يستغني عنه أحد . وفي المبحث الثاني يطالبنا الإمامان بالجد والاجتهاد في سبيل تحصيل العلم ؛ لأن العلم هو الطريق الوحيد لتقدمنا في الدنيا– على باقي الشعوب – والآخرة – بتبوئنا الدرجات العلى في الجنان – وهذا مما لا ينكره أحد .

وفي المبحث الثالث يحثنا الإمامان إلى التحلي بصفة الحلم عند مخاطبة السفيه ، حتى لا يترتب على ذلك آثار سلبية ، وهذا واجبنا جميعا .

وفي المبحث الرابع يرغبنا الإمامان إلى الزهد في الدنيا ، واتخاذها مطية إلى الآخرة ، وهذا فرض علينا جميعا .

وفي المبحث الخامس يهمس الإمامان في أذن الجميع بالتعرف على حقيقة المال ، لئلا ننشغل به كثيرا ، فيهلكنا كما أهلك من قبلنا ، وهذا سبيلنا جميعا.

سابعا : أثبتت الدراسة اقتباس بعض الصور البيانية عند الإمامين من القرآن الكريم والسنة النبوية ، فمثلا الصورة الاستعارية التي وردت عند الإمام الشافعي في قوله :

وَمَنْ نَزَلَتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا ∴ فَلاَ أَرْضٌ تَقِيهِ وَلاَ سَمَاءُ

أحسب أنها مقتبسة من قول الله – تعالى-:" أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ(٩٣).

والصورة الكنائية عند الإمام علي – ﷺ – في قوله : فتصبحُ في نفسٍ وتمشي بغيرها "، لعلها مقتبسة من حديث ابن عمر:" إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ (٩٤)".

ثامنا :من خصائص الصورة البيانية عند الإمام علي – كرم الله وجهه- الإيجاز ،فصوره – غالبا- كانت أقل من صور الإمام الشافعي ؛ لأن تأدية المعنى المراد بصورة بيانية واحدة قد يكون أدل على بلاغة البليغ من أدائها بعدة صور ، ولا يخفى علينا أن البلاغة الإيجاز.

كما أن الصورة عنده مناسبة للحال والمقام ، حيث إن المقام مقام تذكير وتنبيه لقلوب ملئت بالإيمان والإخلاص ، والحال أنهم في قمة الفطنة والفصاحة .

فقلة صوره البيانية دليل واضح على بلاغته العالية ، ففي مقطوعته الشعرية التي يتحدث فيها عن الصمود في مواجهة الأحداث:

هي حالان شدة ورخاءُ ∴ وسجالان نعمة وبلاءُ

والفتى الحاذق الأديب إذا ما ∴ خَانَهُ الدَّهْرُ لَمْ يَخُنْهُ عَزَاْءُ

إن ألمت ملمة بي فإني ∴ في الملمات صخرة صماءُ

عَالِمٌ بِالبَلاَءِ عِلْما بأن لَيْسَ ∴ يَدُومُ نَّعِيمٌ أو رخاءُ

---

٩٣ – من الآية ٧٨من سورة النساء .

٩٤ – – الحديث رواه البخاري – في باب قول النبي – ﷺ – :" كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " – برقم ٦٤١٦.

أتى بأربع صور بيانية فقط ، ولكنها جاءت معبرة تعبيرا دقيقا عن الصمود ، وشاملةً لكل معانيه ، ويكفيه تلك الصورة التشبيهية الرائعة، التي لو أردنا أن نسرد معانيها ، لاحتجنا إلى صفحات كثيرة.

وفي مقطوعته الشعرية التي تحدث فيها عن الزهد في الدنيا:

حَياتُكَ أنفاسٌ تعَدُّ فكُلّما ∴ مضى نفسٌ انقصَت بهِ جُزءا
ويحييك مَا يُنفيكَ في كلِّ حالةٍ ∴ ويحدوكَ حادٍ مايُريدُ بكَ الهزءا
فتصبحُ في نفسٍ وتمشي بغيرها ∴ ومالكَ مِن عقلٍ تُحسَ بهِ رزءا

اشتملت المقطوعة على أربع صور بيانية، وجاءت في صدارتها الصورة التشبيهية الشاملة التي عبرت عن الدنيا تعبيرا رائعا .

تاسعا : من خصائص الصورة البيانية عند الإمام الشافعي – رحمه الله- التكرار البليغ ؛ من أجل توضيح الفكرة التي يهدف إليها ، والوصول إلى مراده في أساليب بيانية متعددة ، وطرق قلب المتلقي من جميع زواياه ؛ لأنه كان يخاطب جيلا اختلط فيه العرب بالعجم ، ونشأ جيل مولد ، ضعفت عنده الملكة البيانية ، وتأثرت السليقة العربية ، إضافة إلى ضعف الإيمان في القلوب قياسًا علي المخاطبين في جيل الإمام علي – ﷺ – .

فمثلا في سياق الصمود في مواجهة الأحداث :

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ ∴ وَطِبْ نَفْساً إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ
وَلاَ تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي ∴ فَمَا لِحَوادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وَكُنْ رجُلاً عَلَى الأَهْوَالِ جَلْداً ∴ وَشِيمَتُكَ السَّمَاحَةُ وَالوَفَاءُ
وَإِنْ كَثُرَتْ عُيُوبُكَ فِي البَرَايَا ∴ وَسَرَّكَ أَنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءُ
تستر بالسخاء فكُلُّ عَيْبٍ ∴ يغطيه كما قيل السَّخَاءُ
وَلاَ حُزْنٌ يَدُومُ وَلاَ سُرُورٌ ∴ وَلاَ بُؤْسٌ عَلَيْكَ وَلاَ رَخَاءُ

وَلاَ تُـــــرِ لِلأَعـــــادِي قَـــــطُّ ذُلاًّ ∴ فَـــــإِنَّ شَـــــمَاتَةَ الأَعْـــــدَا بَـــــلاَّءُ
وَلاَ تَـــرْجُ السَّـــمَاحَةَ مِـــنْ بَخِيـــلٍ ∴ فَمَـــا فِـــي النَّـــارِ لِلظَّمْـــآنِ مَـــاءُ
وَرِزْقُـــكَ لَـــيْسَ يُنْقِصُـــهُ التَّـــأَنِّي ∴ وَلَـــيْسَ يَزِيـــدُ فِـــي الـــرِّزْقِ العَنَـــاءُ
إِذَا مَـــا كُنْـــتَ ذَا قَلْـــبٍ قَنُـــوعٍ ∴ فَأَنْـــتَ وَمَالِـــكُ الـــدُّنْيَا سَـــوَاءُ
وَمَـــنْ نَزَلَـــتْ بِسَـــاحَتِهِ المَنَايَـــا ∴ فَـــلاَ أَرْضٌ تَقِيـــهِ وَلاَ سَـــمَاءُ
وَأَرْضُ اللَّـــهِ وَاسِـــعَةٌ وَلَكِـــنْ ∴ إِذَا نَـــزَلَ القَضَـــا ضَـــاقَ الفَضَـــاءُ
دَعِ الأَيَّـــامَ تَغْـــدُرُ كُـــلَّ حِـــيْنٍ ∴ وَلاَ يُغْنِـــي عَـــنِ المَـــوْتِ الـــدَّوَاء

حيث اشتملت أبياته على ما يقارب من عشرين صورة بيانية ، جميعها تعاضدت وتآزرت للشد من عضد كل مؤمن ؛ ليواجه أحداث الزمان بكل عزيمة وقوة.

كذلك قوله في سياق الحث على طلب العلم :

سهـــري لتنقيـــح العلـــوم ألـــذ لـــي ∴ مـــن وصـــل غانيـــة وطيـــب عنـــاق
وصـــرير أقلامـــي علـــى صـــفحاتها ∴ أحلـــى مـــن الدُكـــاء والعشـــاق
وألـــذ مـــن نقـــر الفتـــاة لدفهـــا ∴ نقـــري لألقـــي الـــرمل عـــن أوراقـــي
وتمـــايلي طربـــا لحـــل عويصـــة ∴ في الـــدرس أشـــهى مـــن مدامـــة ســـاق
وأبيـــت سهـــران الـــدجى وتبيتـــه ∴ نومـــا وتبغـــي بعـــد ذاك لحـــاقي

اشتمل على ما يقرب من خمس عشرة صورة بيانيـة ، وظفهـا الإمـام الشافعي توظيفا حسنا للترغيب في طلب العلم والسعي الدؤوب في تحصيله .

عاشرا : من خصائص الصورة البيانية عند الإمامين ، صدق التجربـة ، ممـا يحقق الانفعال ، والإثارة ، وشد انتباه السامع والمتلقي .

وبالعودة إلى صورهما البيانية التي وردت في هذه الدراسة ، يتضح لنا هذه الملمح بسهولة، ولنأخذ مثلا تأثير الصورة التشبيهية التي وردت في قول الإمام علي – ﷺ –:

إن ألمت ملمة بي فإني ∴ في الملمات صخرة صماءُ

كيف أدت الدور المنوط بها على أكمل وجه ، وأثرت على السامع والمتلقي تأثيرا مباشرا ، تمخض عن صدق التجربة عند الشاعر.

ولنأخذ شاهدا آخر من عند الإمام علي – ﷺ– والشواهد كثيرة–، وهو قوله:

فتصبحُ في نفسٍ وتمشي بغيرها ∴ ومالكَ مِن عقلٍ تُحسَ به رزءا

كيف أثرت كنايته –" فتصبحُ في نفسٍ وتمشي بغيرها "–، في المتلقي وأعطته إشارات بينة ، ودلائل واضحة عن انقضاء أجله بدون مقدمات ، وبدون سابق إنذار ، وما ذلك إلا لصدق تجربة قائلها – ﷺ –.

وهذا الملمح موجود أيضا – بكثرة – عند الإمام الشافعي – رحمه الله –، فمثلا قوله:

وَمَنْ نَزَلتْ بِسَاحَتِهِ المَنَايَا ∴ فَلاَ أَرْضٌ تَقِيهِ وَلاَ سَمَاءُ

فصورته الاستعارية التي صورت المنايا بعدو نزل بساحة قوم ، كان لها تأثير مباشر على قلب السامع ، فجعلته في ترقب مستمر من نزولها بساحته ، وما ذلك إلا لصدق تجربة الشافعي – رحمه الله –.

كذلك قوله:

إن لله عبادا فطنا ∴ طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

فتلك الاستعارة التي صورت الدنيا في صورة امرأة طلقت من زوجها ، دليل قاطع على صدق تجربته ، أليس هو القائل :

علَـــيَّ ثيـــابٌ لـــو يُبـــاعُ جميعُهـــا ∴ بِفَلْـــسٍ لكـــان الفَلْـــسُ مـــنهن أكثـــرا(٩٥)

فثيابه تلك دليل جازم علي تطليقه للدنيا، مما يترتب عليه صدق تجربته .

الحادي عشر: من خصائص الصورة البيانية عند الإمامين ، جزالتها وجـــودة سبكها ، ومجيئها سهلة واضحة لا تكلف فيها ، فألفاظ الإمام علي – ﷺ – تميزت بالفصاحة والدقة والعمق ، ومناسبة الخيال الذي تصوره والحقيقة التي تقررها ، وألفاظ الصورة عند الإمام الشافعي تميزت بالسلاسة والوضـــوح ، والبعـــد عـــن الغريب الذي لا يتناسب مع جمهوره.

ومما سهل لغتهما ورقة ألفاظهما، حفظهمـــا للقـــرآن الكـــريم ، وإدامـــة نظرهما فيه .

وشواهد هذه الخاصية أكثر من أن تحصى، وإن شئت فقل : جميع الصور البيانية عندهما اتسمت بهذه الخاصية .

---

[٩٥] – ديوان الشافعي – ص ٥٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي اصطفى من عباده المؤمنين شعراء مخلصين ، دافعوا بشعرهم عن الإسلام ، واستخدموه في نشر الأخلاق الفاضلة بين الناس ، فكان لهم سراجا وهاجا ، والصلاة والسلام على من نزهه ربه عن قول الشعر ، فقال :" وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ([٩٦])".

وبعد

فقد استمتعت أرواحنا في هذه الرحلة الميمونة بشعر الإمامين (علي – ﷺ – والشافعي – رحمه الله –)، وأسفرت تلك الصحبة عن نتائج – مع العلم أن مبحث خصائص الصورة البيانية عند الإمامين ، صورة مفصلة لنتائج هذا البحث – كان أهمها :

١-غلبة النزعة الدينية على صورهما البيانية .

٢-اتسام الصورة البيانية عندهما بالجدة والابتكار.

٣-أغلب الصور البيانية عندهما مستمدة من الواقع .

٤-وظف الإمامان الصورة البيانية في الدعوة إلى الأخلاق العامة.

---

[٩٦] – الآية ٦٩من سورة يس.

٥-اقتباس بعض الصور البيانية عندهما من القرآن الكريم والسنة النبوية .

٦-اتسمت الصورة البيانية عندهما بصدق التجربة .

٧- التركيب مظهر من مظاهر الصورة البيانية عندهما.

وختاما أسأل الله – جل في علاه – أن يتجاوز عمّا كان في هذا البحث من تقصير وزلل ، وأن يجعله قربةً إلى رضاه ، وحجابًا عن سخطه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

فهرس المصادر والمراجع

١-أحكام القرآن للشافعي – للبيهقي -- كتب هوامشه/ عبدالغني عبد الخالق- قدم له / محمد زاهد الكوثري- مكتبة الخانجي – القاهرة- الطبعة الثانية – ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٢-أسرار البلاغة – للإمام عبد القاهر الجرجاني – ص١٣٠ – ت/ محمود محمد شاكر- مطبعة المدني- الطبعة الأولى – ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٣-أسرار البلاغة – للإمام عبد القاهر -- ت/ محمد رشيد رضا – بيروت- ١٩٨٨م ٤-الكتاب – لسيبويه-تحقيق وشرح / عبدالسلام محمد هارون – مكتبة الخانجي بالقاهرة – الطبعة الثالثة – ١٤٠٨ه- ١٩٩٨م.

٥-الإيضاح – للخطيب القزويني -- ت/ محمد عبد المنعم خفاجي – مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

٦-بغية الإيضاح – لعبد المتعال الصعيدي – مكتبة الآداب – الطبعة السابعة عشر- ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .

٧-بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق- د/كامل حسن البصير- بغداد- ١٤٠٧ه-١٩٨٧م.

٨-البيان والتبين – للجاحظ –- ت/ عبد السلام هارون – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة – ٢٠٠٣م .
٩-تاريخ دمشق – لابن عساكر- – دار الفكر – بيروت- لبنان- الطبعة الأولى – ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
١٠-التصوير البياني " دراسة تحليلية لمسائل البيان " – أ.د/ محمد محمد أبوموسى – مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٨٠م ١١- التعبير البياني – د/ شفيع السيد –- دار الفكر العربي – الطبعة الثانية – ١٩٨٢م .
١٢-التفسير والمفسرون- د/ محمد حسين الذهبي – مكتبة وهبة- الطبعة السابعة – ٢٠٠٠م.
١٣-تهذيب الأسماء واللغات – للنووي –- ت/ مصطفى عبد القادر عطا-من دون.
١٤-الجامع لأحكام القرآن – لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي- ت/ عبدالله بن عبدالمحسن التركي- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى- ١٤٢٧ه-٢٠٠٦م.
١٥-الجوهر النفيس في أشعار محمد بن أدريس – جمع / محمد مصطفى – ط النيل- بمصر- ١٩٠٣هـ.
١٦-الخصائص – لابن جني – ت/ محمد على النجار- عالم الكتب – بيروت- من دون .
١٧-دلائل الإعجاز – للإمام عبد القاهر الجرجاني –مطبعة المدني بالقاهرة- الطبعة الثالثة – ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م .
١٨-ديوان الإمام الشافعي – اعتنى به / عبدالرحمن المصطاوي – دار المعرفة – بيروت- الطبعة الثالثة – ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .

١٩-ديوان الإمام الشافعي - تعليق وتقديم / محمد إبراهيم سليم- مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع – من دون.
٢٠-ديوان الإمام علي بن أبي طالب – ﷺ- ت/ محمد عبد المنعم خفاجي- دار ابن زيدون- مكتبة الكليات الأزهرية- من دون.
٢١-ديوان الإمام علي بن أبي طالب – ﷺ-- جمع وترتيب / عبدالعزيز الكرم- الطبعة الأولى- ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٢٢-ديوان الحطيئة –اعتنى به وشرحه/ حمدو طماس- دار المعرفة – بيروت- لبنان – من دون .
٢٣-رحلة العلماء في طلب العلم – تأليف أبي أنس ماجد إسلام البنكاني-
٢٤-روح المعاني – للألوسي - دار إحياء التراث العربي- بيروت- من دون .
٢٥-السلسلة الصحيحة – محمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف- الرياض- من دون .
٢٦-سنن أبي داود – تأليف / سليمان بن الأشعث الأزدي " أبو داود " – ت/شعيب الأرناؤوط وآخرون – دار الرسالة العالمية – الطبعة الأولى – ١٤٣٠ه- ٢٠٠٩م .
٢٧-سنن الترمذي – تأليف / محمد بن عيسي الترمذي – ت/ أحمد شاكر – ومحمد فؤاد عبدالباقي – وإبراهيم عطوة عوض – دار نشر مصطفى البابي الحلبي – الطبعة الثانية – ١٣٩٧ه – ١٩٧٧م .
٢٨-سنن الدرامي- لعبدالله بن عبد الرحمن الدرامي- ت/ حسين سليم أسد الداراني- دار المغني للنشر والتوزيع- الطبعة الأولى- ١٤٢١ه- ٢٠٠٠م.
٢٩-سنن النسائي- ت/ حسن عبدالمنعم شلبي- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى- ١٤٢١ه -٢٠٠١م .

٣٠-صحيح البخاري – لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري – اعتنى بـه : عماد الطيار – وياسر حسن – مؤسسة الرسالة – من دون ٣١-صحيح مسلم – تأليف : مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري – ت/ نظر بن محمد الفاربابي أبو قتيبة – دار طيبة – الطبعة الأولى- ١٤٢٧ه- ٢٠٠٦م .
٣٢-الصورة بين القدماء والمعاصرين – د/ عبد الحليم محمد شادي – ط السعادة – الطبعة الأولى – ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
٣٣-الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي – د/ جابر عصفور -- دار التنوير للطباعة والنشر- بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٨٣م .
٣٤-الصورة الفنية في المثل القرآني – د/ محمد حسين على الصغير- - منشورات وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية – دار الرشيد – ١٩٨١م .
٣٥-الطبقات الكبرى – لمحمد بن سعد البصري الزهري -- ت/ إحسان عباس- دار صادر بيروت- من دون.
٣٦-العمدة في محاسن الشعر – لابن رشيق القيرواني -- تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد- دار الجيل للنشر- بيروت-الطبعة الرابعة- ١٩٧٢م.
٣٧-العين – للخليل بن أحمد -- ت/ مهدي المخزومي – وإبراهيم السامرائي – بغداد - ١٩٨٦م .
٣٨-الكامل في اللغة والأدب – للمبرد – - مكتبة المعارف – بيروت – من دون.
٣٩-لسان العرب لابن منظور-دار إحياء التراث العربي-الطبعة الأولى- بيروت-١٩٨٨م.
٤٠-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- لابن الأثير – قدمه وعلق عليه / د/أحمد الحوفي – و د/ بدوي طبانة – دار نهضة مصر للطبع والنشر.
٤١-المثل السائر – لابن الأثير – القاهرة – ١٩٣٩م .

٤٢-المستدرك على الصحيحين – لمحمد بن عبدالله الحاكم –ت/ مصطفى عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية – بيروت-الطبعة الأولى- ١٤١١ه- ١٩٩٠م.

٤٣-معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى- ١٤١٤ه -١٩٩٣م .

٤٤-مفاتيح الغيب – للرازي –- دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى- ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٤٥-مفتاح العلوم – للسكاكي – ت/ نعيم زرزور – بيروت- ١٩٧٨م.

٤٦-مفتاح العلوم – للسكاكي –- ط دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٨٧م .

٤٧-المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام –تأليف د/ جواد علي- نشر جامعة بغداد – الطبعة الثانية- ١٤١٣ه- ١٩٩٣م.

٤٨-المقتضب – للمبرد- ت/ محمد عبد الخالق عضيمة – دار نشر وزارة الأوقاف للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤١٥ه – ١٩٩٤م .

٤٩-موسوعة الشعر الإسلامي- جمع وإعداد / علي نايف الشحود – من دون.

٥٠- نقد الشعر- لقدامة بن جعفر- مطبعة الجوائب " قسطنطنية "- الطبعة الأولى ١٣٠٢هـ.

٥١-نقد الشعر – لقدامة بن جعفر- – ت/ كامل مصطفى- مكتبة الخانجي- القاهرة – الطبعة الثالثة – من دون .

٥٢-نهاية الأرب في فنون الأدب – لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري – – ت/ مفيد قميحة وجماعة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان- الطبعة الأولى- ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م .